جامعة قطر
QATAR UNIVERSITY
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
COLLEGE OF SHARIA AND ISLAMIC STUDIES

بصائر المعرفة القرآنية ٢٨

تسوير السور القرآنية ١٨

مفصل تفسير

سورة الفلق

عمود السورة (موضوعها الكلي)

التحصن برب الفلق والبرية في دفع الشرور الظاهرة والغامضة الخفية

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

بصائر المعرفة القرآنية

قرآن يتلى لإنسانية ترقى

تفسير مفصل

سورة الفلق

بصائر المعرفة القرآنية (٢٨)

تيسير السور القرآنية (١٨)

تفسير مفصل

سورة الفلق

عمود السورة (موضوعها الكلي)

التحصن برب الفلق والبرية في دفع الشرور الظاهرة والغامضة الخفية

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

كلية الشريعة / جامعة قطر

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

مُفَصَّل تَفْسِير

سُورَةِ الفَلَقِ

أ.د/ عبد السلام بن مقبل المجيدي

أستاذ الدراسات القرآنية / كلية الشريعة/ جامعة قطر

خضع هذا الكتاب للتحكيم العلمي

راجعه

القسم العلمي في مؤسسة

بصائر المعرفة القرآنية

وحدة البحوث والدراسات

في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية / جامعة قطر

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع القطري: ٢٠٢٥/٢٧٠ - الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٩٢٧١٧٨٢٩٠

الطبعة الأولى

١٤٤٦ هـ – ٢٠٢٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مفصل تفسير

سورة الفلق

عمود السورة (موضوعها الكلي)

التحصن برب الفلق والبرية في دفع الشرور الظاهرة والغامضة الخفية

عبد السلام مقبل المجيدي

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد خازر المجالي

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا القرآن روح به نحيى، ونور وهدى بهما نتلمس الطريق، وفرقان لا يخذلنا في تميز الحق من الباطل، وشفاء لأسقامنا، وبركة ندرك به الخيرات بأنواعها، وشرف عظيم لمن عاش به وله، ورحمة تشمل حياته الدنيا والآخرة. واجب القرآن علينا كبير، تلاوة وتدبرًا وعملًا وحفظًا، تكفَّل الله بحفظه، ويسَّره للذِّكر، وحذَّر من هجرانه، زاد المتقين، ويقين المسترشدين، وأمان الخائفين، وبشرى المصلحين.

وهذا الكتاب جليل في موضوعه، يحتاجه كل مسلم ليزداد وعيًا إلى وعيه، ويقينًا إلى يقينه، يبحث بعين التدبر، وجميل التفكر، فيما به يحصِّن نفسه مما ذكره رب البرية في سورتي الفلق والناس، تحديدًا سورة الفلق، فالمعوذتان (الفلق والناس) حصن المؤمن، يحصِّن بهما نفسه، فهما رُقية، بل قولوا لجوء المؤمن إلى ربه ليحفظه من أسباب الشرور كلها، موقنًا أنه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى هو وحده القادر على كل شيء، لا يطرد من يلوذ به ويلجأ إليه.

هذا الكتاب فيه من الكنوز ما فيه، حين يتنقل القارئ بين صفحاته ليعرف فضائل السورة، إلى وحدتها الموضوعية، بما فيها الأسس التي تؤدي إلى تجلية هذه الوحدة. وبعد ذلك كان التفسير التفصيلي للسورة والبصائر التي اشتملت عليها، وهي بصائر ونوادر ونُكَتٌ فتح الله بها على مؤلِّفه، جاءت بأسلوب سهل متين، أُريدَ منه النفع العام لكل المسلمين، ومع ذلك

فهناك التحليل العميق، والتحقيق الدقيق، بما يؤهل هذا السفر ليكون بحقٍّ زادًا روحيًّا وفكريًّا ودعويًّا في آن واحد.

أما صاحب الكتاب فهو من هو، عرفته قبل ثمانية عشر عامًا من خلال مؤتمر علمي في العاصمة الأردنية عمَّان، ونشر فيها كتابه "المنهج النبوي في التعليم القرآني"، ولعله من أوائل مؤلفاته، وانطلق راشدًا يخوض غمار البحث بهدف تجلية بصائر المعرفة القرآنية، وأبدع أيما إبداع بأسلوبه المقنع، ومنهجه الممتع، فلا يملك القارئ أو السامع إلا أن يزداد فهمه وتدبره، حين تفتح له آفاق جديدة من التدبر والتفكر والتبصر، وهاهو منذ أعوام أربعة يصحبنا في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر، في دوحة الخير، يتحفنا كل صباح بما فتح الله به عليه من أنوار وبصائر، فجزاه الله عن القرآن وأهله خير الجزاء.

أسأل الله أن يتقبل هذا الجهد، وأن ينفع به قارئه ومؤلفه، وأن يلهمنا جميعًا حسن التدبر لكتابه، وأن يستعملنا ولا يستبدلنا، فهو ولي ذلك والقادر عليه.

أ.د/ محمد خازر المجالي

الرئيس الأسبق لجمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمَّان، الأردن

أستاذ الدراسات القرآنية بجامعة قطر والجامعة الأردنية

الدوحة، قطر: ٩/ ١٢/ ٢٠٢٤م

مُقَدِّمَة

الحمد لله اللطيف الخبير الذي أنزل على العالمين أعظم القرآن وهو أعظم وحيه وأنبائه، الحافظِ المجيرِ لأصفيائه، العاصمِ بفضله قلوبَ أوليائِهِ، القاصِمِ بقدرته جموعَ أعدائِهِ.

الحمد لله جعل سورة الفلق حماية للبشر من شرِّ ما خلق، بها يعلو الإنسان إلى أعلى أُفُق، وبها يُحفَظُ إنْ لسانه بها نطق، وقلبه بها خفق، وعينه من استشعار عظمتها تَرِقُّ.

وَالصَّلَاة وَالسَّلَام على صفوة الصفوة من الْبشر، الذي يرتفع بذكره كلُّ خبر، وتعلو النَّفْس بالصَّلاة عليه في الآصال والبُكَر، وعَلى أَصْحَابه الَّذين أرْغم الله ﷻ بفضائلهم وفواضلهم أنف من استكبر.

أما بعد:

فإن التحديات التي يبتلى بها الإنسان في حياته كثيرة، فهو يُبتلى في السراء والضراء، ويحاط بصنوفٍ من الأعداء الظاهرين منهم والأخفياء، فمِنْ نَفْسٍ أمارةٍ بالسوء تُغوي، إلى هوىً يُردي، وشيطانٍ يؤذي، إلى خصوم من بني جنسه يرمونه بالحسد والمكائد والمؤامرات، وآخرين من العالم المغيَّب عنه من الجنِّ يتسلطون عليه بأنواع متعددة من الضرر والمصيبات، إلى غير ذلك مما لا ينفك عن إنسانٍ من بني آدم، وانظر إلى البشر، وخذ من حياتك ومنهم العِبَر: فمن مصروعٍ تحت حوافرِ عدوِّه، ومن منتصرٍ رافعٍ لراية النصر على خصمه في رواحه أو غُدُوِّه، واللطيف الخبير يخبرنا أنه خلق هذه الحياة على هذا النحو والتقدير فيقول: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ١-٢].

هذه الحياة، وهذا حال الإنسان، ولكن مولاه الرحمن الرحيم الودود لم يتركه وحده يواجه مِنْ أعدائه قصفَ الرعود، فلم يتركه نهبًا للعوادي، ولا هدفًا يواجه وحده الأعادي، بل أرشده ربه الأكرم أن يلجأ إلى الحصن الأعظم، فعلَّمه العلم الأعظم، وأهدى إليه من كلماته ما يعصمه به من الشرور، وينجو به من كل خطر ومحذور، ومن ذلك ما أوحى به إلى نبيه ﷺ من المعوذات، اللاتي هنَّ الحصن الحصين، والركن الركين، لمن أخذهن بصدق ميتن، ولهج بهن بحقٍّ ويقين، ومن ذلك سورة الفلق العظيمة، وآياتها المباركة.

بصدقٍ نلوذُ بربِّ الفلقْ ... وبُشرى لعبدٍ منيب صدَقْ
وبالله عُذْنا من النَّائبات ... كذاك ومن شرِّ ما قد خَلَقْ
إلهي أَجِرْنا من الحادثات ... ومن شرِّ ما في الليالي طَرَقْ
حميتَ رسولَك في الغار حيثُ ... أحاطَ عليه رماةُ الحَدَقْ
ومن شرِّ نارٍ حَرَستَ الخليل ... ولولاك ربي لكان احترقْ
ونجَّيتَ موسى بتابوتهِ ... صغيرًا ولولاكَ ربي غَرَقْ
كذلك في ظلماتٍ ثلاثٍ ... يناديك يونسُ، والقلبُ رَقْ
فأرسلتَ حالًا شِراعَ النَّجاة ... وفكَّكْتَ ما كان عنهُ انغلقْ
وناداك آدمُ حيثُ عصاك ... فَجُدتَ بعفوٍ عميمٍ غَدَقْ
وناداك أيوبُ في ضُرِّه ... وليلُ البلاءِ عليه انطبَقْ
وكم من كَسِيرٍ مَهِيضِ الجناح ... بدمع العذابِ اكتوَى واختنَقْ
ففَرَّجْتَ عنهُ وأسعدتهُ ... فأشرق منه جمالُ الألَقْ
وكم من أسيرٍ بأيدي العِدا ... فلمَّا بصدقٍ دعاكَ انعتَقْ

وكَمْ من مريضٍ على حالِه ... سنينَ يعاني الأذَى والأرَقْ
فجاء الشِّفاءُ يحثُّ الخُطى ... بصدقِ التوجُّهِ لمَّا صدقْ
وكم من مُحاصَرَ في بقعةٍ ... ضعيفٍ، وهاجَ عليه القَلقْ
فلمَّا أحاطوا به بغتةً ... تبدَّى كنجمٍ مضيءٍ سبَقْ
فهانحن عُذنا فَجُدْ ربَّنا ... علينا بِنورٍ يضيءُ الغسَقْ(١)

وقد قصدنا هنا إلى (سورة الفلق) واستجلاء كنوز بصائرها، وهدايات آياتها وجواهرها، فدونك هذه السُّورة الفخمة العظيمة التي تمنحك أعظم درجات الأمان، وأقوى حصون الإيمان، دونك الذي تبحث عنه في حياتك: المأمن من كلِّ مخافة، والمفزع من كلِّ مهابة، والملجأ من كلِّ رعب، والمنجا من الأزمات المتتابعة، والحصن من المصائب الحاضرة والمستقبليَّة القارعة.

إنَّها سورة تعطي العالَمَ نداءَ المحبة الإلهيَّة ليَعُوذوا بكَنَفِ الله ﷻ، ويلجؤوا إلى أمنع حصنٍ وجاه، ويستظلُّوا بأعظم العزِّ في حِمَاه، ويلوذوا بحمايته وحفظه من كلِّ ألم أو آه، ويتفيؤوا ظلال نُورِه وهداه.

إنَّها السُّورة التي تقدِّم لك العزَّ الذي يحفظك من كلِّ ما يُخِيفُك سواء أكان خافيًا أم ظاهرًا، قويًّا قاهرًا، أم خفيًّا مجهولًا ماكرًا، متبجِّحًا معلومًا، أم مخادعًا مخاتلًا لئيمًا.

تمنح هذه السُّورة المباركة البشريَّةَ الأمانَ من العدوِّ على وجه الإجمال الذي يعجز اللسان عن تحديد أنواع شره، وعلى وجه التفصيل ليستبين لك حقيقة مكره وضُرِّه.

(١) الأبيات للدكتور: عامر الخميسي –وفقه الله–.

وكأنما يفتح الله ﷻ بهذه السُّورة للبشر حصونَ حفظِه ولطفِه، ويبسط لهم بُسُطَ رحمتِه وعطفِه، ويقول لهم في مودَّة وتحبُّب: تعالوا إلى هنا، تعالوا إلى ملاذكم الأمين، وحصنكم المتين، وحِمَاكم الذي لا يمكن أن تناله مكائد الظالمين، تعالوا لتجدوا ما يُحَوِّلُ ضعفكم إلى قوَّة، وذِلَّتكم إلى عزَّة، وقَلَقكم إلى اطمئنان وسكينة.

إلى حماك إلهَ الكونِ خلَّاقِي ... يهفُو فؤادي وتَحْنَانِي وأشواقِي
وفي رضاك رجائي بُغْيَتِي أَمَلِي ... ومِنْ عذابِكَ يا ربَّاهُ إشفاقي
أعوذ باسمكَ منْ كلِّ الشرورِ فَمَنْ ... إلَّاكَ عاصِمُنِي مِنْ ضُرِّها واقِي
وأستجيرُ بِهِ مِنْ كلِّ ذي حسدٍ ... أراد كيدي وإِضْراري وإِقْلاقِي
إنْ أظلمَ الدَّربُ أو تاهت خطاي فَمِنْ ... سَنَا هُدى وحيِه المعصومِ إشراقي
أو سُدَّتِ السُّبْلُ في وجهي فكمْ فتَحَتْ ... غيوثُهُ كلَّ ذي قُفْلٍ ومِغلاقِ
يحيا فؤاديَ باسمِ اللهِ إنْ نَطَقَتْ ... بهِ لساني فذِكْرُ اللهِ تِرْياقِي
بنورِ وجهك إلَّا كنْتَ لي سندًا ... كلٌّ يزولُ وأنتَ الواحدُ الباقي(١)

إنها سورةٌ تملأ حياتنا بالظِّلال الرَّحيمة الحانية القويَّة، يسبغها علينا ربُّ البريَّة، وخالق البشريَّة، فهلمَّ إلى رحابِ سورة الفلق السَّنِية، وأفيائها الندية لنرشُفَ منها الأنوار البهية.

عبد السلام مقبل المجيدي
s1435y@gmail.com

١ رجب ١٤٤٦هـ

١ ينـاير ٢٠٢٥م

(١) الأبيات للدكتور: سعيد بن دحباج –وفقه الله–.

وَهَجُ الشفَقِ بأنوار سورة الفلقِ

النُّور الأول: فضائل سورة الفلق.

النُّور الثاني: عمود السورة (الموضوع الكلِّيُّ) الذي تدور حوله سورة الفلق.

النور الثالث: الأسس الثمانية التي تؤدِّي إلى معرفة عمود سورَة الفلق (موضوعها الكلي).

النُّور الأول

فضائل سورة الفلق

١ الحصن الأعظم من جميع المخاطر والشرور

٢ من أعظم السُّوَر مكانة.

٣ من أعظم السُّوَر محبَّة عند الله عز وجل

٤ عظمة مكانتهما بتكرار صلاة الفجر بهما مع أن الأصل فيها طول الركعة

٥ الحماية للإنسان في أثناء نومه

٦ علاجٌ للأوجاع والأسقام

٧ المُعَوِّذتان وقاية من الحوادث المخيفة

٨ المُعَوِّذتان وسيلة لإجابة السُّؤال، ووقاية خاصَّة من جميع ما يُخاف منه؛ مرئيًّا كان أو غير مرئيٍّ

٩ ارتباطهما بصلاة الوتر اليوميَّة

١٠ المُعَوِّذتان العلاج الأقوى للسِّحر

النُّور الأول: فضائل سورة الفلق

هذه السورة لها مكانة متميزة، فآياتها لافتة، وموضوعها مُبْهِرٌ، وموضعها أي مكانها من المصحف أعظم إبهارًا، فما أبرز فضائل هذه السورة المباركة؟

الجواب:

لهذه السورة مع سورة الناس فضائل تجلب القلوب إليهما، وتجعل النفوس لا تَفْتُرُ عن ترديدها، فمن هذه الفضائل العظيمة:

الفضيلة الأولى: الحصن الأعظم من جميع المخاطر والشرور:

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ خُبَيْبٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَأَصَبْتُ خُلْوَةً مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَقَالَ لِي: «قُلْ» فَقُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «قُلْ» قُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ لِي: «مَا تَعَوَّذَ النَّاسُ بِأَفْضَلَ مِنْهُمَا»(١)، وعَنِ ابْنِ عابسٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «يَا ابْنَ عابسٍ، أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعَوَّذَ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ»(٢).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَتَعَوَّذُ مِنَ الجَانِّ وَعَيْنِ الإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتِ المُعَوِّذتان، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا»(٣).

---

(١) النسائي (٥٤٢٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٩٥)، وفي صحيح سنن النسائي (٥٠١٨).

(٢) أحمد (١٧٢٩٧)، قال محققو المسند: إسناده صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (١١٠٤).

(٣) الترمذي (٢٠٥٨)، وقال: وَفِي البَابِ عَنْ أَنَسٍ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٠٢).

الفضيلة الثانية: من أعظم السُّوَر مكانة:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم «أُنْزِلَ أَوْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: المُعَوِّذتين»(١).

يعني: لم تكنْ آياتُ سورةٍ كلُّهنَّ تعويذٌ للقارئ من شرِّ الأشرار غيرَ هاتين السُّورتين(٢).

وقال الصنعاني رحمه الله: «(مثلهن قط) من جهة القصد، والأظهر أن المراد فيما أنزلن لأجله، وهو الاستعاذة، ودفع الأعين، وكفاية شر الحاسد في العائن والنفاثات»(٣).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: «قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «اقْرَأْ يَا جَابِرُ»، قُلْتُ: وَمَاذَا أَقْرَأُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «اقْرَأْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»، فَقَرَأْتُهُمَا، فَقَالَ: «اقْرَأْ بِهِمَا، وَلَنْ تَقْرَأَ بِمِثْلِهِمَا»(٤).

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: اتَّبَعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ رَاكِبٌ، فَوَضَعْتُ يَدَيَّ عَلَى قدمه، فَقُلْتُ: أَقْرِئْنِي من سُورَة يُوسُفَ. فَقَالَ: «لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَبْلَغَ عِنْدَ اللهِ مِنْ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾»(٥).

وقد يكون سياق الحادثة وما يعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم من حال عقبة بن عامر رضي الله عنه هو الذي دعاه إلى ذلك، فليست على عمومها في التفضيل؛ ولهذا قال الطيبي رحمه الله «قوله: «لن تقرأ شيئـًا أبلغ»

---

(١) مسلم (٢٦٥).

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح (٣/ ٧٩).

(٣) التنوير شرح الجامع الصغير (٤/ ٢٨٠).

(٤) النسائي (٥٤٤١)، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٢٤٣):" إسناده جيد"، وقال محققو السنن: إسناده حسن من أجل شداد بن سعيد، وباقي رجاله ثقات.

(٥) أحمد (١٧٣٤١)، وقال محققو المسند: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي عمران أسلم -وهو ابن يزيد التُّجيبي- فقد روى له أصحاب السنن غير ابن ماجه، وهو ثقة"، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢١٧).

بيان لتقييد السؤال المطلق، أي أأقرأ سورة هود، وسورة يوسف لدفع السوء عني؟ فقال: لن تقرأ شيئًا أبلغ لدفع السوء من هاتين السورتين»[1].

الفضيلة الثالثة: من أعظم السُّوَر محبَّة عند الله ﷻ:

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه يخبرنا كيف وجهه النبي ﷺ إلى التركيز على عظمة المعوذتين عند مقارنتهما بسورٍ أكبر منهما حجمًا، فقال: تَعَلَّقْتُ بِقَدَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَقْرِئْنِي سُورَةَ هُودٍ وَسُورَةَ يُوسُفَ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ، إِنَّكَ لَمْ تَقْرَأْ سُورَةً أَحَبَّ إِلَى اللهِ، وَلَا أَبْلَغَ عِنْدَهُ مِنْ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾». قَالَ يَزِيدُ: "لَمْ يَكُنْ أَبُو عِمْرَانَ يَدَعُهَا، وَكَانَ لَا يَزَالُ يَقْرَؤُهَا فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ»[2].

الفضيلة الرابعة: تكرار تلاوتهما في صلاة الفجر مع أن الأصل فيها طول التلاوة:

عَنْ عقبة بن عامر رضي الله عنه «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْغَدَاةِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾» هَذَا لَفْظُ حَدِيثِ زِيدِ بْنِ أَبِي الزَّرْقَاءِ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، أَمِنَ الْقُرْآنِ هُمَا؟ فَأَمَّنَا بِهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ[3]، وفي رواية عنه رضي الله عنه قال: كنت أقودُ برسولِ الله ﷺ ناقتَه في السفر، فقال لي: «يا عُقْبَةُ، ألا أعلمكَ خير سورتَيْن قُرِئتا؟» فعلَّمني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٥/ ١٦٧١).

(٢) أحمد (١٧٤١٨)، وقال محققو المسند: "إسناده صحيح"، وصححه الوادعي في الصحيح المسند (٩٣٣).

(٣) صحيح ابن خزيمة (٥٣٦)، وصحح المحقق: (الأعظمي) إسنادَه من طريق أبي أسامة.

ٱلنَّاسِ﴾، قال: فلم يرني سُررتُ بهما جدًّا، فلما نزلَ لصلاة الصبح، صلَّى بهما صلاةَ الصبح للناس، فلما فَرَغَ رسولُ الله ﷺ من الصلاة، التفتَ إليَّ فقال: «يا عُقْبَة كيفَ رأيتَ؟»[1].

وربما تتساءل هنا: فهل خفي أمر أنَّ المعوذتين من القرآن حتى يسأل عقبة رضي الله عنه هذا السؤال؟

الجواب: لعل سبب سؤال عُقْبَة بْن عَامِرٍ رضي الله عنه النبي ﷺ أنه رأى النبي ﷺ يرددهما متعوِّذًا بهما، فارتاب هل هما مما يُتعوذ به من القرآن، أم أنهما ينتميان إلى الأذكار التي نتعوذ بها؟

الفضيلة الخامسة: الحماية للإنسان في أثناء نومه:

بيَّنت لنا أمُّ المؤمنين عَائِشَة رضي الله عنها كيف كان النَّبيُّ ﷺ يقرؤهما في ليلته، فقَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ النَّوْمَ يَجْمَعُ يَدَيْهِ فَينْفُثُ فِيهِمَا، وَيَقْرَأُ بِـ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا عَلَى وَجْهِهِ وَرَأْسِهِ وَسَائِرِ جَسَدِهِ». قَالَ عَقِيلٌ: ورأيت ابن شهاب يفعل ذلك[2].

وفي لفظ: «ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا رَأْسَهُ وَوَجْهَهُ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ»، يَصْنَعُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مرات [3].

أيا حبيباه:

سورة بهذه المنزلة الباسقة، والمكانة السامقة، والفضل السابغ، حريٌّ بي وبك أن نجعلها حصننا الحصين وركننا المتين، نلهج بها لجوءً إلى كنف الله عز وجل، وطلبًا لحماه، وما ألطف ما قاله شاعر البصائر د. سعيد بن دحباج –وفقه الله–:

---

(١) أبو داود (١٤٦٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٣١٥).

(٢) المنتخب من مسند عبد بن حميد (١٤٨٢)، وصححه (المحقق): مصطفى العدوي.

(٣) أحمد (٢٤٨٥٣)، وقال محققو المسند: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"؛ مختصر الشمائل (٢١٨)، وصححه الألباني.

إذا دهتْكَ جيوشُ الهَمِّ والقلقِ — وبِتَّ ترقُبُ نجمَ اللَّيلِ من أرقِ
وأثقلَتْكَ رزايا لا مَرَدَّ لها — وأسلمتْكَ يدُ الأمواجِ للغرقِ
فَلُذْ ببابِ كريمِ الجاهِ منطرحًا — وعُذْ بمولاكَ ربِّ الناسِ والفلقِ
أَدِمْ وقوفَكَ عندَ البابِ ملتمسًا — والْجَأْ لركنِهِ في صُبْحٍ وفي غَسَقِ
واهتِفْ بذكرِهِ تلقى الهمَّ منفرجًا — ويفتحُ اللهُ ربِّي واسعَ الطُّرُقِ

هذه الفضائل الخمس ضمها إليك، واجعلها بين عينيك، وتعال أُلخِّص لك فضائل أخرى ذكرتها في كتابي عن السُّورة المعظَّمة المباركة سورة الناس، ولنضفها إلى ما سبق:

الفضيلة السادسة: علاجٌ للأوجاع والأسقام:

عن عَائِشَةَ ﵂: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا»(١).

ومن الأمراض التي تشفيها المُعَوِّذتان اللدغات المفاجئة من الحشرات؛ فعَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ عَنْ عَلِيٍّ [وهو أبوه] ﵁، قَالَ: لَدَغَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَقْرَبٌ، وَهُوَ يُصَلِّي، فَلَمَّا فَرَغَ، قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الْعَقْرَبَ، لا تَدَعُ مُصَلِّيًا وَلَا غَيْرَهُ، ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ وَمِلْحٍ، وَجَعَلَ يَمْسَحُ عَلَيْهَا، وَيَقْرَأُ بِـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(٢).

---

(١) البخاري (٥٠١٦).

(٢) المعجم الصغير (٨٣٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١١١): «رواه الطبراني في الصغير، وإسناده حسن»، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٤٨).

الفضيلة السابعة: المُعَوِّذتان وقاية من الحوادث المخيفة:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الْجُحْفَةِ وَالأَبْوَاءِ إِذْ غَشِيَتْنَا رِيحٌ وَظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وَيَقُولُ: «يَا عُقْبَةُ، تَعَوَّذْ بِهِمَا، فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا». قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَؤُمُّنَا بِهِمَا فِي الصَّلاة[1].

الفضيلة الثامنة: المُعَوِّذتان وسيلة لإجابة السُّؤال، ووقاية خاصَّة من جميع ما يُخاف منه؛ مرئيًّا كان أو غير مرئيٍّ:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا عُقْبَةُ، قُلْ» فَقُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: «يَا عُقْبَةُ قُلْ» قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ عَنِّي.

-أيَّدك الله-: هل ترى؟ هل تسمع ما قيل؟ لماذا كرَّر النَّبيُّ ﷺ قوله: «يا عقبة، قل»، ثم لم يجب سؤال عقبة ﷺ؟

أجيبك بأن:

(١) أبو داود (١٤٦٥)، وقال الأرناؤوط: "صحيح، وهذا إسناد فيه عنعنة ابن إسحاق، لكن أخرجه النسائي في "الكبرى" بنحوه (٧٧٨٩) من طريق ابن عجلان، عن سعيد المقبري، عن عقبة بن عامر، وهذا سند قوي"، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٣١٦).

هذا أسلوب تعليميٌّ عظيم، يستعمله النَّبيُّ ﷺ مع أصحابه وأمَّتِه، ليوقظ حواسهم، ويبعدهم عن الغفلة، ويشوِّقهم إلى ما سيذكره بعد ذلك، وقد تعلَّم النَّبيُّ ﷺ هذا الأسلوب من جبريل عليه السلام في أوَّل لقاء بينهما في غار حراء؛ فإن جبريل عليه السلام كرَّر عليه قوله: "اقرأ".

هنا يكون عقبة رضي الله عنه قد اشتاق إلى سماع ما يريد النَّبيُّ ﷺ قوله، فتسمعه يقول متلهِّفًا: فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ ارْدُدْهُ عَلَيَّ -أي: اللَّهُمَّ اجعل نبيَّك يقول لي مرَّة ثالثة ما قاله سابقًا- فَقَالَ: «يَا عُقْبَةُ، قُلْ» قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾»، فَقَرَأْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ» قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»، فَقَرَأْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا»[1].

ماذا يعني ذلك؟ ماذا يريد النَّبيُّ ﷺ أن يصوِّر لنا بعد كلِّ هذا التَّشويق؟

الجواب: إنَّ هذه الرواية زادتنا زيادة عظيمة: تقرأ المُعَوِّذتين فتجعلهما مفتاحًا لأنْ تسأل الله عز وجل ما تشاء، فبعد قراءة المُعَوِّذتين اسأل الله عز وجل بهما ما شئت من خيري الدُّنيا والآخرة.

ألا تلاحظ معي أن سيِّدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه روى لنا أحاديث فضائل سورة النَّاس، وقد أوردنا هنا خمسة منها؛ مما يثير عندنا تساؤلًا: ما سرُّ هذه العلاقة الحميمة بين سيدنا عقبة والمُعَوِّذتين؟

---

(١) النسائي (٥٤٣٨)، وقال الألباني: «حسن صحيح»، وحسنه الأعظمي في الجامع الكامل في الحديث الصحيح الشامل المرتب على أبواب الفقه (١١/ ٣٣٨).

هل كان يشتكي من داء فشكاه إلى حبيبنا المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه؟ هل كان يشتكي من داء فشكاه إلى حبيبنا ﷺ، على حدِّ قول القائل:

تموتُ النُّفوسُ بأوصابِها ... ولم تَشْكُ عُوَّادَها ما بِها
وما أنْصَفَتْ مُهجةٌ تشتكي ... هواها إلى غيرِ أحبابِها[(١)]

أو أنَّ الحبيب ﷺ أراد أن يختصَّه برواية فضائل المُعَوِّذتين؟

مسألة تحتاج منا إلى إنعام النَّظر وتقليب الطَّرف، بيد أن هذه منقبة ومكرمة لا تخفى على متأمِّل.

وقد حدث مثل هذا التَّشويق لصحابيٍّ آخر، فهلمَّ نستمع قصته، فعن معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه ﷺ قال: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَأَصَبْتُ خُلْوَةً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَقَالَ لِي: «قُلْ»، فَقُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «قُلْ»، قُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾» حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»، حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ لِي: «مَا تَعَوَّذَ النَّاسُ بِأَفْضَلَ مِنْهُمَا»[(٢)].

وحدث مثل ذلك أيضًا لصحابيٍّ ثالث، فعنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَأْ يَا جابِرُ»، قُلْتُ: وَمَاذَا أَقْرَأُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «اقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»، فَقَرَأْتُهُمَا، فَقَالَ: «اقْرَأْ بِهِمَا، وَلَنْ تَقْرَأَ بِمِثْلِهِمَا»[(٣)].

---

(١) ذكر الصفدي أن ابن تيمية ﷺ كان كثيرًا ما ينشد هذه الأبيات. ينظر: الوافي بالوفيات (٧/ ١٥).

(٢) النسائي (٥٤٢٩)، وصححه الألباني.

(٣) النسائي (٥٤٤١)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

هذا التَّكرار بهذا الأسلوب التَّعليميِّ مع أكثر من صحابيٍّ يبصِّرنا بالحرص العظيم الذي كان يتمتع به النَّبيُّ ﷺ لإيصال الخير لأمَّتِه، وهو أيضًا تبيين لرفعة منزلة سُورَتَي النَّاس والفلق، وعظيم مكانتيهما، وما تضمَّنتها من الحروز العظيمة، والوقايات الجسيمة، والمعاني الفخمة، والدَّلائل الضَّخمة.

فتحصَّن بهما -أيها الحبيب- من الشُّرور والمصائب والويلات، وأَدِمْ تكرارهما في النهار واللَّيل، وجميع الأوقات، وكرِّرهما على فؤادك وجنانك في مختلف الأحايين والسَّاعات؛ عسى الله ﷻ أن يجنِّبك الأهوال والآفات، ويدخلك الجِنان العاليات، ويعاملك برحمته ولطفه يوم تبدل الأرض والسَّموات.

الفضيلة التاسعة: ارتباطهما بصلاة الوتر اليوميَّة:

إذ يقرآن في آخر ركعة من الوتر مع الإخلاص، فالمداومة على قراءتهما في هذا الموضع يرشدنا إلى مكانتهما الخاصَّة.

عن عَمْرَة بنت عبد الرحمن رضي الله عنها قالت: سألت عائشة رضي الله عنها ما كان النَّبيُّ ﷺ يقرأ في الوتر؟ فقالت: «كان يقرأ في الرَّكعتين التي يوتر بعدهما في الأولى منهما بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثانية بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وتسليم، ويقرأ في الرَّكعة التي يوتر بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[1].

(١) مسند البزار (٢٦٧)، واللفظ له، والدارقطني (١٦٤٩)، وحسنه الأعظمي في الجامع الكامل في الحديث الصحيح الشامل المرتب على أبواب الفقه (٢/ ٣٣٢).

الفضيلة العاشرة: المُعَوِّذتان العلاج الأقوى للسِّحر:

فهما يمثِّلان أعظم سبل الوقاية والعلاج من السِّحر المنغص لحياة كثير من الناس، الجالب لهم نوائب الهم والوسواس، مما قد يخفى وجوده عن العيون، ولا تفلح في الوصول للوقوف على حقيقته الظنون، فعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﵁، قَالَ: «سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ: فَاشْتَكَى فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ﵇، فَنَزَلَ عَلَيْهِ بِالمُعَوِّذتين، وَقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، وَالسِّحْرُ فِي بِئْرِ فُلَانٍ، قَالَ: فَأَرْسَلَ عَلِيًّا، فَجَاءَ بِهِ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ، ويقرأ آيَةً، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَحُلُّ حَتَّى قَامَ النَّبِيُّ ﷺ كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ، قَالَ: فَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِذَلِكَ الْيَهُودِيِّ شَيْئًا مِمَّا صَنَعَ بِهِ، قَالَ: وَلَا أَرَاهُ فِي وَجْهِهِ»(١).

فانظر لفخامة هاتين السُّورتين، ومكانتهما، وعظيم بركتهما، وكثرة فوائدهما.. راجع نفسك لتشعر بالنعيم المختبئ وراءهما، فلهما تأثير خاصٌّ في دفع الأضرار، ومقاومة السحرة الأشرار، وسائر الشرور وأعمال الفجار، والأمر فيهما بين الناس، كما قال ابن القيم ﵀: «حاجة العبدِ إلى الاستعاذة بهاتين السُّورتين أعظمُ من حاجته إلى النَّفَس والطعام والشراب واللباس»(٢).

---

(١) مسند عبد بن حميد (٢٧١)، وقال المحقِّق (الشيخ العدوي): «سنده صحيح»، وذكره الألباني برواياته المختلفة في الصحيحة (٢٧٦١)، والحديث أخرجه: أحمد (١٩٢٦٧)، وقال محققو المسند: "حديث صحيح بغير هذه السياقة، وهذا إسناد فيه تدليس الأعمش"، وعزاه المزي في "تحفة الأشراف (٣٦٩٠)" إلى النسائي في المحاربة، وفي فتح الباري (١٠ / ٢٢٥): "وقع في حديث ابن عباس ﵄ فيما أخرجه البيهقي في الدلائل بسند ضعيف في آخر قصة السحر الذي سحر به النبي ﷺ أنهم وجدوا وترًا فيه إحدى عشرة عقدة، وأنزلت سورة الفلق والناس، وجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة"، ولكن الألباني قال: «زيادة نزول جبريل بـ(المُعَوِّذتين) سندها صحيح أيضًا». وقصة سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ ثابتة مع اختلاف في اللفظ عن هذا في البخاري، وغيره.

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٧٠٢).

النُّور الثَّاني

عمود سورة الفلق (موضوعُها الكُلِّيُّ)

الآيات الخمس التي تكوِّن سورة الفلق لا تدعنا في حيرة من أمرنا عندما نريد أن نحدِّد الموضوع الكلِّيَّ لسورة الفلق، فهي تدور حول **(الاستعاذة من الشرور الخارجية الظاهرة والخفيَّة، المعروفة والغامضة)، ويمكننا أن نعنون لعمود السورة (موضوعها الكلي) بأنه:**

التَّحصُّنُ بربِّ الفلق والبريَّة في دفع الشُّرور الظَّاهرة والغامضة الخفيَّة.

ويمكن أن يقال: التحصن بقوَّة رب الفلق العظيمة من الشرور الظاهرة والغامضة الوخيمة.

أو: دفع الشرور الظاهرة والغامضة والقلق ببصائر سورة الفلق.

إذ ينجي منها ربُّ الفلق فكما يفلق النواة فإنه يفلق الشرور الخارجية الدَّقيقة؛ ابتداء من أعمِّها من شرِّ ما خلق، ثم الغاسق الداخل حيث لا مفرَّ كالليل، ومن الشرور البعيدة التي لا ترى وهي تتآمر كالنفاثات في العُقَد، والشرور التي لا ترى وتتآمر، لكن أصحابها يخالطون الإنسان كالحاسد إذا حسد.

الأسس الثمانية التي تؤدِّي إلى معرفة عمود سورة الفلق {موضوعها الكلي}

التحصن برب الفلق والبرية في دفع الشرور الظاهرة والغامضة الخفية

الأساس الأول: النزول التاريخيُّ
المُعَوِّذتان سورتان مدنيَّتان نزلتا في المدينة النَّبويَّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

الأساس الثاني: التَّرتيب المصحفيُّ
بعد التأكيد على ضرورة التوحيد في سورة الإخلاص، ختم القرآن الكريم بسورتين تُقدِّمان للإنسان الحماية التامة:

سورة الفلق	سورة الناس
تحمي الإنسان من الشرور الظاهرة والخفية.	تحمي الإنسان من شرور الوسواس الخفي.

الأساس الثالث: اسم السُّورة
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، والمُعَوِّذة، ويقال لها مع سورة الناس: المُعَوِّذتان، والمُشَقْشِقَتان.

الأساس الرابع: أهمُّ موضوعات السورة
موضوعها واحد واضح، وهو الاستعاذة من الشرور العامة والخاصة الظاهرة والغامضة.

الأساس الخامس: مدد السَّابقين
مدد السَّابقين من المفسِّرين في تحديد عمود السورة (الموضوع الكلِّي).

حدد البقاعي موضوعها بدقّة كبيرة، فقال:
«الاعتصام من شر كل ما انفلق عنه الخلق الظاهر والباطن». (نظم الدرر 22/ 406)

قال الفيروزآبادي:
«معظم مقصود السُّورة: الاستعاذة من الشرور، ومن مخافة اللَّيل الدَّيجور، ومن آفات الماكرين والحاسدين» (بصائر ذوي التمييز 1/ 556).

الأساس السادس: الخريطة الكلية للسُّورة

- **المحور الأول:** الأمر بطلب المَعاذ الأعظم ﴿قُلْ﴾ [الفلق: 1].
- **المحور الثاني:** المستعيذ (الضمير المستتر وجوبًا في قوله): ﴿قُلْ﴾ [الفلق: 1].
- **المحور الثالث:** صيغة الاستعاذة: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ...﴾ [الفلق: 1-5].
- **المحور الرابع:** المُستعاذ به: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: 1].
- **المحور الأول:** المستعاذ منه: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝...﴾ [الفلق: 2-5].

الأساس السابع: الكلمات التي انفردت بها سورة (الفلق) ولم تتكرَّر في بقية السُّوَر

﴿ٱلْفَلَقِ﴾ - ﴿غَاسِقٍ﴾ - ﴿وَقَبَ﴾ - ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ - ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

الأساس الثامن: الكلمات المتكرِّرة بصورة ملحوظة

تكررت كلمة ﴿شَرِّ﴾ (26) مرة، منها أربع مرات في سورة الفلق، وهذا يدل على مركزية هذه الكلمة في هذه السورة.

النور الثالث

الأسس الثمانية التي تؤدِّي إلى معرفة عمود سورَة الفلق (موضوعها الكلي)

الموضوع الكلِّيُّ لهذه السُّورَة واضحٌ جدًّا، فاسمها يدلُّ عليه، ولزيادة توضيحه يمكن أن نرجع إلى الأسس الثمانية التي اعتمدناها:

الأساس الأوَّل: النُّزول التَّاريخيُّ.

الأساس الثَّاني: التَّرتيب المصحفيُّ.

الأساس الثَّالث: اسم السُّورَة.

الأساس الرَّابع: أهمُّ موضوعات السُّورَة.

الأساس الخامس: مدد السَّابقين من المفسِّرين في تحديد عمود السورة (الموضوع الكلِّي).

الأساس السَّادس: الخريطة الكلية للسُّورَة.

الأساس السابع: الكلمات التي انفردت بها سورة (الفلق) ولم تتكرَّر في بقية السُّوَر.

الأساس الثامن: الكلمات المتكرِّرة بصورة ملحوظة.

ودونك تفصيل هذه الأسس يسَّاقط بين يديك رُطبًا جنيًا:

الأساس الأوّل: النُّزول التَّاريخيُّ

قد تسأل: متى نزلت سورة الفلق؟ وهل هي مكِّيَّة أم مدنيَّة؟

الجواب:

المُعَوِّذتان سورتان مدنيَّتان -على الراجح- نزلتا في المدينة النَّبويَّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، ورجَّح ابن عاشور أنهما مكيتان(١)، ويحتمل فيهما تكرار النزول في مكة والمدينة، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(٢)، فقوله: «أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ» تصريح أنها أُنزلت في ذلك الوقت -وإن كان اللفظ ليس قطعيًّا، فالاحتمال يطرقه، وعقبة بن عامر ﵁ مدني، ولكننا نحتاج إلى تدقيق أكثر عندما نجمع هذه الرواية إلى روايةٍ أخرى أشارت إلى أن نزولهما كان عقب حادثة إيذاء يهود النبي ﷺ بسِحْرِه، فعن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﵁ قَالَ: سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ: فَاشْتَكَى، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ﵇، فَنَزَلَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَقَالَ: «إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، وَالسِّحْرُ فِي بِئْرِ فُلَانٍ»، قَالَ: فَأَرْسَلَ عَلِيًّا فَجَاءَ بِهِ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ ويقرأ آيَةً، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَحُلُّ، حَتَّى قَامَ النَّبِيُّ ﷺ كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ»(٣).

---

(١) قال ابن عاشور: واختلف فيها أمكية هي أم مدنية، فقال جابر بن زيد والحسن وعطاء وعكرمة: مكية، ورواه كريب عن ابن عباس. وقال قتادة: هي مدنية، ورواه أبو صالح عن ابن عباس. والأصح أنها مكية لأن رواية كريب عن ابن عباس مقبولة بخلاف رواية أبي صالح عن ابن عباس ففيها متكلم. التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٤).

(٢) مسلم (٨١٤).

(٣) سبق تخريجه (ص: ٢٢).

وعند التفكُّر والتدبُّر تجد أن قوله: «فَنَزَلَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ» لا يدلُّ بالضَّرورة على تاريخ النزول، فيحتمل أن جبريل ﷺ نزل بهما مُذَكِّرًا، لا أنه نزل بهما في ذلك الوقت أوَّل مرَّة، على أنه يحتمل أن نجمع بين الروايتين من وجهٍ آخر، وهو أن المُعَوِّذَتَيْنِ نزلتا في شأن تخليص النبي ﷺ من كيد المجرمين الذين أرادوا إيذاءه بالسِّحر، ولكنَّ النبي ﷺ ذكرها لعُقبة ﷺ بعد ذلك لتجدُّد نزولها، أو تجدُّد مدارسته ﷺ لها.

وكذلك يمكننا القول: إن السورتين مكيتان، وما جاء في نزولهما بعد سحر النبي ﷺ إنما هو أمر بقراءتهما لا نزولهما، تمامًا مثل آية السؤال عن الروح في سورة الإسراء.

أحاديث سحر النبي ﷺ:

وهنا يأتينا سؤال مُلِحٌّ حول: أحاديث سحر النبي ﷺ فهل صحَّت هذه الأحاديث؟ وهل يستطيع أحد أن يسحر النبيَّ المعصوم ﷺ؟

الجواب: أما الكلام عن حقيقة السحر، فسبق في سورة البقرة، وقد قال قتادة ﷺ: "السحر سِحْران: سحر تعلَّمه الشياطين، وسحر يعلِّمه هاروت وماروت"(١)، ولكن السحر أنواع ودرجات، وقد بينت الأحاديث الواردة في هذا الشأن الدرجة التي سُحِر بها النبي ﷺ بدقَّة، فعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: «سَحَرَ رسولَ اللهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيق، يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، حَتَّى كان رسول الله ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي، لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا» -وفي رواية مسلم ﷺ-: «حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ دَعَا»، ثم قال: «أشعرت أن الله ﷻ أفتاني فيما فيه شفائي، أَتَانِي رَجُلَانِ- أي: ملكان في صورة رجلين- فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عند رجلي،

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٢٠-٤٢١).

فقال أحدهما للآخر: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في ماذا؟ قال: في مشط ومُشَاقة -وفي رواية ومُشَاطة- وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: في بئر ذَرْوان. فخرج إليها النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ رَجَعَ، فقال لعائشة ﵂ حين رجع: «يَا عَائِشَةُ، كَأَنَّ مَاءَهَا نُقاعة الحِنَّاء، أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشَّيَاطِينِ». فقلت: استخرجته؟ فقال: «لا، أمَّا أنا فقد شفاني الله ﷻ، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرًّا». ثُمَّ دُفِنت البئر(١).

وقبل أن ننظر في قصة هذا الحديث المبارك لننظر إلى معاني بعض الكلمات المشكلة فيه كما يبينها الإمام النووي ﵀:

فقوله: «الْمَطْبُوبُ: الْمَسْحُورُ، يُقَالُ: طُبَّ الرَّجُلُ إِذَا سُحِرَ، فَكَنَوْا بِالطِّبِّ عَنِ السِّحْرِ، كما كَنَوْا بالسَّليم عن اللَّديغ، قال ابن الأنبارى ﵀: الطِّب من الأضداد، يُقَالُ لِعِلَاجِ الدَّاءِ طِبٌّ، وَلِلسِّحْرِ طِبٌّ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدْوَاءِ، وَرَجُلٌ طَبِيبٌ أَيْ: حَاذِقٌ سُمِّيَ طَبِيبًا؛ لِحِذْقِهِ وَفِطْنَتِهِ قَوْلُهُ «فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُبِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ»: أَمَّا (الْمُشَاطَةُ) فَبِضَمِّ الميم، وهى: الشَّعْرُ الَّذِي

---

(١) البخاري (٣٢٦٨)، مسلم (٢١٨٩).

وهناك روايات ضعيفة في هذه الحادثة، أذكر منها هذه الرواية لما فيها من ذكر قراءة آيات المعوذتين على هذه العُقَد، وكلما قرئت آية انحلَّت عُقْدة، عن ابن عبَّاس ﵄ قال: مرض رسول الله ﷺ، وأُخِّذ عن النساء وعن الطعام والشَّراب، فهبط عليه مَلَكان، وهو بين النائم واليقظان، فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، ثمَّ قال أحدهما لصاحبه: ما شَكْوُهُ؟ قال: طُبَّ! يعني سُحِر، قال: ومن فَعَله؟ قال: لَبيد بن أعصم اليهوديُّ! قال: ففى أيِّ شيءٍ جعله؟ قال: في طَلْعَة: قال: فأين وضعها؟ قال: في بئر ذَرْوان تحت صخرة: قال: فما شفاؤه؟ قال: تُنْزَح البئر، وترفع الصَّخرة، وتستخرج الطَّلْعَة. وارتفع الملَكان، فبعث نبيُّ الله ﷺ إلى عليٍّ وعمَّار، فأسرَّهما أن يأتيا الرَّكيَّ (البئر)، فيفعلا الَّذى سمع، فأتياها وماؤها كأنَّه قد خُضِبَ بالحِنَّاء فنزحاها، ثمَّ رفعا الصَّخرة فأخرجا طَلْعةً، فإذا بها إحدى عشرة عُقْدة، ونزلت هاتان السُّورتان: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، فجعل رسول الله، ﷺ، كلَّما قرأ آيةً انحلَّت عُقْدةٌ، حتى انحلَّت العُقَدُ، وانتشر نبيُّ الله ﷺ للنِّساء والطَّعام والشَّراب». الطبقات الكبرى (٢/ ١٧٧)، قال نبيل البصارة في أنيس الساري (تخريج أحاديث فتح الباري) (٧/ ٤٨٢٢): «وإسناده ضعيف؛ لضعف جويبر، والضحاك لم يسمع من ابن عباس ﵄».

يَسْقُطُ مِنَ الرَّأْسِ أَوِ اللِّحْيَةِ عند تسريحه، وَأَمَّا قَوْلُهُ: (وَجُبِّ): هَكَذَا فِي أَكْثَرِ نُسَخِ بِلَادِنَا (جُبِّ) بِالْجِيمِ وَبِالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ، وَفِي بَعْضِهَا (جُفِّ) بِالْجِيمِ وَالْفَاءِ، وَهُمَا بِمَعْنًى، وَهُوَ وِعَاءُ طَلْعِ النَّخْلِ، وَهُوَ الْغِشَاءُ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى؛ فَلِهَذَا قَيَّدَهُ فِي الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ: (طَلْعَةِ ذَكَرٍ)، وَهُوَ بِإِضَافَةِ (طَلْعَةٍ) إِلَى (ذَكَرٍ) -وَاللهُ أَعْلَمُ- وَوَقَعَ فِي الْبُخَارِيِّ مِنْ رواية بن عُيَيْنَةَ ﷺ: (وَمُشَاقَةٌ) بِالْقَافِ بَدَلُ (مُشَاطَةٍ)، وَهِيَ الْمُشَاطَةُ -أَيْضًا- وَقِيلَ: مُشَاقَةُ الْكَتَّانُ»[1]، أي: ما يخرج من الكَتَّان حين يُمْشَق، والمَشْق: جَذْب الشيء ليمتد ويطول، وقيل: (المشاقة) ما يغزل من الكَتَّان، و(بئر ذَرْوان): بئر في المدينة في بستان لأحد اليهود، وفِي جَمِيعِ نُسَخِ (مُسْلِمٍ ﷺ) ذِي أَرْوَانَ.

(وَاللهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ): النُّقَاعَةُ: -بِضَمِّ النُّونَ- الْمَاءِ الَّذِي يُنْقَعُ فِيهِ الْحِنَّاءُ.

و(رؤوس الشياطين) أي: شبيه لها؛ لقبح منظره، (دُفِنت البئر): طُمَّت بالتراب حتى استوت مع الأرض.

وقوله: (وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرًّا): أَخْبَرَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ عَافَاهُ، وَأَنَّهُ يَخَافُ مِنْ إِخْرَاجِهِ وَإِحْرَاقِهِ وَإِشَاعَةِ هَذَا ضَرَرًا وَشَرًّا عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ تَذَكُّرِ السِّحْرِ، أَوْ تَعَلُّمِهِ، وَشُيُوعِهِ وَالْحَدِيثُ فِيهِ، أَوْ إِيذَاءُ فَاعِلِهِ، فَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ أَوْ يَحْمِلُ بَعْضَ أَهْلِهِ وَمُحِبِّيهِ وَالْمُتَعَصِّبِينَ لَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ عَلَى سِحْرِ النَّاسِ وَأَذَاهُمْ، وَانْتِصَابِهِمْ لِمُنَاكَدَةِ الْمُسْلِمِينَ بِذَلِكَ. هَذَا مِنْ بَابِ تَرْكِ مَصْلَحَةٍ لِخَوْفِ مَفْسَدَةٍ أَعْظَمَ مِنْهَا وَهُوَ مِنْ أَهَمِّ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ»[2].

قوله: «فَكَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقال» أَيْ: حُلَّ. وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي الْحَدِيثِ.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٧٧).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٧٧-١٧٨).

وَكَثِيرًا مَا يَجيء فِي الرِّوَايَةِ «كَأَنَّمَا نَشِطَ مِنْ عِقال» وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ، يُقَالُ: نَشَطْتُ العُقْدة: إِذَا عَقَدتَها، وأَنْشَطْتُهَا وانْتَشَطْتُهَا: إِذَا حَلَلْتَها[1].

وقد تتساءل: متى وقعت حادثة سحر النبي ﷺ؟

الجواب: بيَّن الواقدي رحمه الله السَّنَة التي وقع فيها السحر، فقال: لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي الحجة ودخل المُحَرَّم من سنة سبع، جاءت رؤساء اليهود إلى لَبيد بن الأعصم، وكان حليفًا في بني زُرَيق، وكان ساحرًا، فقالوا له: يا أبا الأعصم، أنت أسحرنا، وقد سَحَرْنا محمدًا فلم نصنع شيئًا، ونحن نجعل لك جُعْلًا على أن تسحره لنا سِحرًا يَنْكَؤه[2]، فجعلوا له ثلاثة دنانير[3].

فإن قلت: كم المدة التي أقام فيها النبي ﷺ على هذه الحالة؟

الجواب: قال ابن حجر رحمه الله: «ووقع في رواية أبي ضمرة عند الإسماعيلي: فأقام أربعين ليلة، وفي رواية وهيب عن هشام عند أحمد رحمه الله: ستة أشهر، ويمكن الجمع بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه، والأربعين يومًا من استحكامه، وقال السهيلي رحمه الله: لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدَّة التي مكث النبي ﷺ فيها في السحر حتى ظفرت به في جامع معمر عن الزهري رحمه الله أنه لبث ستة أشهر، كذا قال، وقد وجدناه موصولًا بإسناد الصحيح فهو المعتمد»[4].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٥٧).

(٢) نَكَأْتُ العَدُوَّ: إذا أثَّرت فيه أثرًا من قتل أو نهب أو غير ذلك. انظر: جامع الأصول (٦/ ٦٢٨).

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٧٦)، وذكر ابن حجر أن ابن سعد أخرجه عن الواقدي بسند له إلى عمر بن الحكم مرسل. فتح الباري بشرح البخاري (١٠/ ٢٢٦).

(٤) فتح الباري بشرح البخاري (١٠/ ٢٢٦).

سحر النبي ﷺ: بين صحة الرواية والتأويلات الخاطئة:

إنكار الأحاديث الواردة في سحر النبي ﷺ:

وهنا نسأل: كيف يمكن أن نقبل مثل هذه الأحاديث والنبي ﷺ معصوم، فكيف يضره السحر؟!

الجواب: أنكر بعضهم حادثة سحر النبي ﷺ[1]، فقال أبو بكر الأصم رحمه الله: "ذكروا في هذه السورة حديثًا فيه ما لا يجوز؛ فتركته"[2]، وأَنْكَر المعتزلة ذَلِكَ بِأَسْرِهِمْ، قَالَ الْقَاضِي: هَذِهِ الرِّوَايَةُ بَاطِلَةٌ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِصِحَّتِهَا، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [الْمَائِدَة: ٦٧] وَقَالَ: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، وَلِأَنَّ تجويزه يفضي إلى القدح في النبوة، ولأنه لَوْ صَحَّ ذَلِكَ لَكَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الضَّرَرِ لِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَلَقَدَرُوا عَلَى تَحْصِيلِ الْمُلْكِ الْعَظِيمِ لِأَنْفُسِهِمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ بَاطِلٌ، وَلِأَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يُعَيِّرُونَهُ بِأَنَّهُ مَسْحُورٌ، فَلَوْ وَقَعَتْ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ لَكَانَ الْكُفَّارُ صَادِقِينَ فِي تِلْكَ الدَّعْوَةِ، وَلَحَصَلَ فِيهِ عليه السلام ذَلِكَ الْعَيْبُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ[3].

وقال الجصاص رحمه الله: «زعموا أن النبي عليه السلام سُحِر، وأن السِّحر عمل فيه حتى قال فيه: "إنه يتخيل لي أني أقول الشيء وأفعله ولم أَقُلْهُ ولم أَفْعَلْهُ" وأن امرأة يهودية سحرته في جُفِّ طَلْعة ومُشط ومُشاقة، حتى أتاه جبريل عليه السلام فأخبره أنها سحرته في جف طلعة وهو تحت راعوفة البئر، فاستخرج وزال عن النبي عليه السلام ذلك العارض، وقد قال الله تعالى مكذِّبًا للكفار فيما ادعوه من ذلك للنبي ﷺ، فقال جل من قائل: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]،

---

(١) راجع كتاب الحذر من السحر (ص: ٦٠، وما بعدها).

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (١٠/ ٦٥٣).

(٣) تفسير الرازي (٣٢/ ٣٦٧).

ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدين تلعُّبًا بالحشو الطَّغام واستجرارًا لهم إلى القول بإبطال معجزات الأنبياء ﷺ والقدح فيها، وأنه لا فرق بين معجزات الأنبياء ﷺ وفعل السحرة، وأن جميعه من نوع واحد، والعجب ممن يجمع بين تصديق الأنبياء ﷺ وإثبات معجزاتهم وبين التصديق بمثل هذا من فعل السحرة مع قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، فصدَّق هؤلاء مَنْ كذَّبه الله ﷻ وأخبر ببطلان دعواه وانتحاله»(١).

(١) هناك عدد من الدراسات والبحوث التي تناولت الرد على من أنكر حديث سحر النبي ﷺ، منها:

١) "ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر" للشيخ مقبل الوادعي رحمه الله، تناول فيه دراسة إسناد الحديث وذكر أقوال أهل العلم في هذه المسألة.

٢) "القول الأتم في رد الشبهات حول سحر النبي الأعظم ﷺ" للباحثة يسرى سعد عبد الله أحمد، مجلة كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، العدد الثالث، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٣) "سحر رسول الله ﷺ: دراسة وتحليل وتوجيه" للباحث محمد كامل أسعد عبد الهادي، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية، جامعة الزرقاء، الأردن، المجلد (٢١)، العدد الثاني، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م.

٤) "الشبهات المعاصرة حول حديث سحر الرسول ﷺ: عرض ونقد" للدكتورة هدى يحيى علي المالكي، مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية، العدد (٣٠) مايو ٢٠٢٣م.

مناقشة أدلة المنكرين لسحر النبي صلى الله عليه وسلم

أولًا:

هذه الروايات التي تُثبت أن النبي ﷺ سُحِرَ صحيحة صريحة، والقدح فيها بمجرد الرأي غير صحيح، ولا منهجي

ثانيًا:

قول الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المَائِدَة: ٦٧] لا يعني العصمة من أن ينالوه ببعض الأذى، أو أن تصيبه الأمراض، فتأثير السحر المذكور في الحديث قد وصل به إلى حد التخييل بفعل أشياء، لكن ليس إلى درجة أن يضر ذلك بعصمته من جهة الوحي

ثالثًا:

السحر تسلَّط على الجسد كالمرض ولم يتسلَّط على الوعي الذي به أدّى النبي ﷺ الرسالة

رابعًا:

أثبت هذه الحادثة جمهور العلماء، وجمع هذه الردود ببراعة كبيرة أمير المؤمنين في الحديث ابن حجر رحمه الله، وخلاصة القول: إن هذه الأحاديث تثبت سحرًا لا يؤثر في رسالة النبي ﷺ، بل الأحاديث تؤكدها، وتثبتها

مناقشة أدلة المنكرين لسحر النبي ﷺ[1]:

ليس بخاف أن منطلق إنكار كون النبي ﷺ قد سحر لدى هؤلاء إنما هو تنزيههم مقام النبوة عما يشينه، أو يتوصل إليه بالطعن، ومع ذلك يقال لهم: هلا اصطحبتم التأني والصبر وعدم التعجل في إطلاق الأحكام، ونذكرهم بالنقاط الآتية:

أولًا: هذه الروايات التي تُثبت أن النبي ﷺ سُحِرَ صحيحة صريحة، والقدح فيها بمجرد الرأي غير صحيح، ولا منهجي.

ثانيًا: قول الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [الْمَائِدَة: ٦٧] لا يعني العصمة من أن ينالوه ببعض الأذى، أو أن تصيبه الأمراض، فتأثير السحر المذكور في الحديث قد وصل به إلى حد التخييل بفعل أشياء، لكن ليس إلى درجة أن يضر ذلك بعصمته من جهة الوحي بلاغًا وحفظًا من الزيادة أو النقصان، وإنما كان التسلط بالتخييل في الأمور الدنيوية كإتيان النساء، لا في أمور الوحي والشريعة، ولا يؤثِّر على عصمة الوحي، ولذلك جاءت الملائكة تخبر النبي ﷺ بحقيقة حاله، ولو كان تسلَّط على الوحي لَمَا ميَّز الملائكة، ولَظَنَّهُم شياطين مثلًا، فلماذا ينكرون رواية صحيحة؟ وكيف يقابل الإنسان رسول الله ﷺ وقد نفى عنه ما أثبته لنفسه؟

---

(١) أحكام القرآن للجصاص (١/ ٥٨).

السحر الذي أصاب النبي ﷺ من السحر الذي لا يتسلط على أنوار نبوته، ولم يرد دليل على عصمته منه، إنما العصمة للوحي، وهذا النوع من السحر يُشْبِهُ كلَّ الأعراض البشرية التي تأتي للنبي ﷺ، فيتعامل معها بصورة عظيمة تجعلنا نقتدي به فيها عندما يحدث لنا الأمر ذاته، فقد مرض النبي ﷺ، وأغمي عليه في مرضه، وأصابه الهمُّ والحزن، واعتدى عليه المجرمون، وجحشت (خُدِشَت) رِجْلُه، وسقط من جَمَلِه، وشُجَّ رأسه الشريف، وكُسِرت رَبَاعِيَتُهُ، وكان يربط على بطنه الحَجَر من الجوع، كلُّ هذه أعراض بشرية تحدث له ابتلاء، فيتعامل معها وَفْقَ الأمر الشرعي.

فكذلك كان من حكمة الله ﷻ أن يَحْدُثَ له هذا النوع من البلاء، وهو السحر الذي لا يؤثِّر على الوحي، فما المانع أن يحدث ذلك؟ بل هذا البلاء يزيد النبي ﷺ عظمة ومجدًا، ويجعلنا أكثر تعلُّقًا به باعتباره المقتدى به، فقد اكتملت عليه أنواع البلاء التي ذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وكذلك ابتلاه الله ﷻ بما قرَّره في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد: ٣١].

وكذلك ابتلاه بما قرَّره في قوله: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وكذلك ابتلاه بما قرَّره في قوله: ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢١٤].

والابتلاء بالسحر من هذا النوع، حتى إذا أصاب ذلك أحدًا من أُمَّتِهِ كان له في النبي ﷺ أسوة في كيفية التعامل مع هذه النازلة الكبيرة.

وكانت الحادثة ابتلاء عظيمًا للنبي ﷺ تسلط على جانبه البشري الذي قال الله ﷻ عنه فيه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].كما ابتلي سليمان ﷺ، ولقد نجح رسول الله ﷺ في اجتياز هذه المحنة العظيمة كما نجح في اجتياز غيرها، ونلاحظ شدة دعائه، وإلحاحه، وتكريره للدعاء دون كلل حتى قال النووي ﷺ: «هَذَا دَلِيلٌ لِاسْتِحْبَابِ الدُّعَاءِ عِنْدَ حُصُولِ الْأُمُورِ الْمَكْرُوهَاتِ، وَتَكْرِيرِهِ، وَحُسْنِ الِالْتِجَاءِ إِلَى اللهِ تعالى»(١).

وقال ابن حجر ﷺ: «سلك النبي ﷺ في هذه القصة مسلكي التفويض وتعاطي الأسباب، ففي أول الأمر فوَّض وسلَّم لأمر ربه ﷻ، فاحتسب الأجر في صبره على بلائه، ثم لمَّا تمادى ذلك، وخشي من تماديه أن يُضْعِفَهُ عن فنون عبادته جنح إلى التَّداوي، ثم إلى الدُّعاء، وكلٌّ من المقامين غاية في الكمال»(٢).

ولقد ابتلاه الله ﷻ بالمرض، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ «أَنَّ جِبْرِيلَ ﷺ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ»(٣).

وكذلك كادت الشياطينُ رسولَ الله ﷺ، فعن أَبِي التَّيَّاحِ، قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَنْبَشٍ التَّمِيمِيِّ ﷺ-وَكَانَ كَبِيرًا-: أَدْرَكْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ صَنَعَ

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٧٦).

(٢) فتح الباري بشرح البخاري (١٠/ ٢٢٨).

(٣) مسلم (٢١٨٦).

رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ كَادَتْهُ الشَّيَاطِينُ؟ فَقَالَ: إِنَّ الشَّيَاطِينَ تَحَدَّرَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ، وَفِيهِمْ شَيْطَانٌ بِيَدِهِ شُعْلَةُ نَارٍ يُرِيدُ أَنْ يُحْرِقَ بِهَا وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَهَبَطَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْ. قَالَ: «مَا أَقُولُ؟» قَالَ: «قُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا خلَقَ، وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، يَا رَحْمَنُ». قَالَ: فَطَفِئَتْ نَارُهُمْ، وَهَزَمَهُمُ اللهُ تبارك وتعالى(١).

وقال المهلب رحمه الله: «صون النبي ﷺ من الشياطين لا يمنع إرادتهم كيده فقد مضى في الصحيح أن شيطانًا أراد أن يفسد عليه صلاته فأمكنه الله عز وجل منه، فكذلك السحر ما ناله من ضرره ما يدخل نقصًا على ما يتعلَّق بالتبليغ، بل هو من جنس ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض من ضعف عن الكلام، أو عجز عن بعض الفعل، أو حدوث تخيُّل، لا يستمر بل يزول ويبطل الله عز وجل كيد الشياطين»(٢).

هنا يبادر الذين أنكروا هذه الأحاديث، فيقولون: إن الله عز وجل أخبرنا أن الكفار اتهموا النبي ﷺ بأنه مسحور، فقالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧]، وقال قوم صالح عليه السلام له: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]، وقال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، فاتهام الكفار للأنبياء عليهم السلام، ودفاع الله عز وجل عنهم يدل على أن الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن يصيبهم السحر؟

الجواب: عندما اتهم المجرمون الأنبياء عليهم السلام بأنهم مسحورون عنوا أنه «مَنْ سُحِرَ حتى جُنَّ، فقالوا: مسحورٌ، مثل مجنون زائل العقل لا يعقلُ ما يقولُ، فإنَّ المسحورَ الذي لا يُتَّبَعُ: هو

(١) مسند أحمد (١٥٤٦٠)، وحسنه الألباني في الترغيب والترهيب (١٦٠٢)، وكذا الوادعي في الصحيح المسند (٨٩٣).

(٢) فتح الباري بشرح البخاري (١٠/ ٢٢٧).

الذي فسد عقلُه بحيث لا يدري ما يقولُ فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه ﴿مُعَلَّمٌ مَّجۡنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، فأمّا من أُصِيب في بَدَنه بمرض من الأمراض يُصابُ به الناسُ فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنما قذفوهم بما يحذِّرون به سفهاءَهم من اتِّبَاعهم، وهو أنهم قد سُحِروا حتى صاروا لا يعلمونَ ما يقولون بمنزلة المجانين، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٤٨][(١)].

فقول الكفار: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧] عنوا به السحر الذي يتخبطه فيه الشيطان، وهو معصوم من ذلك، أمَّا السحر المشابه لجنس المرض فالإجماع على إثباته، وعدم نفيه، ويقرِّر الرازي ﵀ ذلك، فيقول: «فالْكُفَّارَ كَانُوا يُرِيدُونَ بِكَوْنِهِ مَسْحُورًا أَنَّهُ مَجْنُونٌ أُزِيلَ عَقْلُهُ بِوَاسِطَةِ السِّحْرِ، فَلِذَلِكَ تَرَكَ دِينَهُمْ، فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ مَسْحُورًا بِأَلَمٍ يَجِدُهُ فِي بَدَنِهِ فَذَلِكَ مِمَّا لَا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ، وَبِالْجُمْلَةِ فَاللهُ تَعَالَى مَا كَانَ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ لَا شَيْطَانًا وَلَا إِنْسِيًّا وَلَا جِنِّيًّا يُؤْذِيهِ فِي دِينِهِ وَشَرْعِهِ وَنُبُوَّتِهِ، فَأَمَّا فِي الْإِضْرَارِ بِبَدَنِهِ فَلَا يَبْعُدُ»[(٢)].

قال البقاعي ﵀: «ولا يوجب ذلك صدق الكفرة في وصفه ﷺ بأنه مسحور، فإنهم ما أرادوا إلا الجنون، أو ما يشبهه من فساد العقل واختلاله، والمبالغة في أنَّ كلَّ ما يقوله لا حقيقه له، كما أنَّ ما ينشأ عن المسحور يكون مختلطًا لا تعرف حقيقته»[(٣)].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٤٤).

(٢) تفسير الرازي (٣٢/ ٣٦٧).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤١٢).

ثالثًا: السحر تسلَّط بالتخييل في أمور دنيوية،ولم يتسلَّط على الوعي الذي به أدَّى النبي الرسالة، فقد بينت عائشة ﵂ أن سحر النبي ﷺ لم يتعدَّ نواحيه البشرية الدنيوية كأيِّ مرض آخر، فلم يتسلَّط على ما يتعلَّق بالرسالة، فمثَّلت لما كان يجده بسبب السحر، فقالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُحِرَ، حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيهِنَّ»، قَالَ سُفْيَانُ: «وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ، إِذَا كَانَ كَذَا»(١).

ومن مظاهر ما أصابه بسبب هذا السحر ما ورد: «وحُبِسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ عَائِشَةَ خَاصَّةً حتى أنكر بصره»(٢)، قال ابن حجر ﵀: "عنده –معمر بن راشد–في مرسل سعيد بن المسيب ﵀ حتى كاد ينكر بصره"(٣).

رابعًا: أثبت هذه الحادثة جمهور العلماء، وجمع هذه الردود ببراعة كبيرة أمير المؤمنين في الحديث ابن حجر ﵀، وخلاصة القول: إن هذه الأحاديث تثبت سحرًا لا يؤثر في رسالة النبي ﷺ، بل الأحاديث تؤكِّدها، وتثبتها، وتجعل الحادثة من دلائل نبوته ﷺ، وذلك من خلال الآتي:

أحدهما: بما أعلمه الله ﷻ بالوحي أنه سُحِرَ، وذلك فعل فعلوه سرًّا منه، ولا وقوف لأحد على الغيب إلا بالوحي، وقرَّر ابن حجر ﵀ ذلك فقال: «ووقع في مرسل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد، فقالت أخت لبيد بن الأعصم: "إن يكن نبيًّا فسيُخبر، وإلا فسيذهله

---

(١) البخاري (٥٧٦٥). قال الداودي (يرى) بضم أوله أي: يظن، وقال ابن التين ضبطت (يَرى) بفتح أوله. قال ابن حجر: وهو من الرأي لا من الرؤية فيرجع إلى معنى الظن. فتح الباري بشرح البخاري (١٠/ ٢٢٧).

(٢) الجامع لمعمر بن راشد (١٩٧٦٣).

(٣) الجامع لمعمر بن راشد (١٩٧٦٤)، وفيه (يغض بصره) وضبطها ابن حجر (ينكر بصره)، نقلًا من جامع معمر نفسه.

هذا السحر حتى يذهب عقله"[1]. قلت: فوقع الشق الأول كما في هذا الحديث الصحيح»[2].

والثاني: بما أبطل عمل السحر بتلاوة القرآن؛ فيصير لتلاوته في إبطال عمل السحر ما لعصا موسى عليه السلام، وأن هذا في كونه آية أعظم ممَّا فعل موسى عليه السلام؛ لأن ذلك يتنوَّع بتنوُّع ما له الفعل والعمل من حيث الجوهر والطبع، من حيث مرأى العين؛ فإنه ثعبان يلقف ما صنعوا. فأما إبطال السحر وعمله بتلاوة القرآن لا يكون إلا باللطف من الله تعالى[3].

وردَّ المازري رحمه الله على المنكرين بأسلوب عنيف، فقال: «أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر، فزعم أنه يحُطُّ منصب النبوة ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع، وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطلٌ؛ لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ، والمعجزة شاهدة بذلك، وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل، فأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها ولا كان مفضَّلًا من أجلها وهو مما يعرض للبشر، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له، وقد قيل: إنه إنما كان يتخيل إليه أنه وطئ زوجاته، وليس بواطئ، وقد يتخيل الإنسان مثل هذا في المنام فلا يبعد تخيله في اليقظة ولا حقيقة له، وقيل: إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله، ولكن لا يعتقد صحة ما يتخيله فتكون اعتقاداته على السداد»[4].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٧٧)، وفيه (فسوف يُدَلِّهُه) بدلًا من (وإلا فسيذهله).

(٢) فتح الباري بشرح البخاري (١٠/ ٢٢٧).

(٣) تفسير الماتريدي (١٠/ ٦٥٣).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٧٤).

وقد أورد الإمام البخاري ﵀ حديث سحر النبي ﷺ في سبعة مواضع: أوَّلها في كتاب الجِزية، والثاني في كتاب بدء الخلق، وثلاثة منها في كتاب الطِّب، والسادس في كتب الأدب، والسابع في كتاب الدعوات، وهذا من فقه الإمام البخاري ﵀؛ إذ ذكر أغلب مواضعه في (كتاب الطِّب)؛ ليدل على أنه مرض.

الأساس الثَّاني

التَّرتيب المصحفيُّ

{المناسبة والاتصال بين سورة الفلق وسورتي الإخلاص والناس}

العلاقة الأولى: الخلاص، والحماية والسلام

بعد التأكيد على ضرورة التوحيد في سورة الإخلاص، ختم القرآن الكريم بسورتين تُقدِّمان للإنسان الحماية التامة:

سورة الفلق:	سورة الناس:
تحمي الإنسان من الشرور الظاهرة والخفية.	تحمي الإنسان من شرور الوسواس الخفي.

العلاقة الثانية: التعظيم والالتجاء والفرار

سورة الإخلاص:	وسورتا الفلق والناس:
تُعرِّف الخلق بصفات الله تعالى العظيمة.	تُعلِّمان الإنسان الاستعاذة بالله تعالى من شرور الخلق.

العلاقة الثالثة: الفلق والناس هدية الختام بعد اكتمال معالم الدين في القرآن

لما افتُتح القرآن بالتعريف بالإسلام في سورة الفاتحة، واختُتم بتقرير التوحيد في سورة الإخلاص، فتمَّ بذلك الدِّين، أَمَرَ بالتعوذ بربِّ هذا الدِّين، موافقة لإياك نعبد وإياك نستعين، من شرٍّ ما يقدح فيه بضرر في الظاهر أو في الباطن.

العلاقة الرابعة: سورة الإخلاص جوهرُ التوحيد، وسورتا الفلق والناس حصنٌ من شرورِ المخلوقاتِ

لمَّا شرح الله عز وجل أمر الإلهية في سورة الإخلاص شرح في السورتين بعدها مراتب مخلوقاته التي قد ينبثق عنها كلُّ شرٍّ؛ ليزداد المرء لربِّه عز وجل إخلاصًا، وبمناجاته إيناسًا.

العلاقة الخامسة: الشرور الأربعة في سورة الفلق ترتبط بأصل العدوِّ الذي يثير الشَّرَّ في العالم

وهو الوسواس الخناس الذي ذكرته سورة الناس.

العلاقة السادسة: الإخلاص دعوة إلى الله، والمعوذتان حماية للداعية في أثناء دعوته.

الأساس الثَّاني

التَّرتيب المصحفيُّ (المناسبة والاتصال)

أما المناسبة لموقع هذه السورة المباركة في آخر القرآن فمن أوضح الأمور، فبعد (١١٢) سورة عظيمة تمثِّل أنوارًا بهية في حياة الإنسان، جاءت سورة الفلق لتمثل الحماية العظيمة للإنسانية من كل الشرور المحيطة، وهي الشرور التي تمنع الإنسان من الانتفاع بأنوار القرآن العظيم، وتمنعه عن التمتع بالحياة وفق الصراط المستقيم، فإن أهدت الفاتحة له الهداية إلى الصراط المستقيم، وأهدت له سورة البقرة العيش ضمن الحضارة الإسلامية العظيمة الجديدة، وهكذا بقية سور القرآن فإن سورتي الفلق والناس تحميانه من الأشرار والشرور التي تحول بينه وبين نعمة الهداية وسائر النعم الإلهية.

وقد تسأل: ما المناسبة والاتِّصال بين هذه السُّورَة المباركة، وسورة الإخلاص قبلها، وسورة الناس بعدها؟

الجواب: تبرز وجوه المناسبة والاتِّصال بين هذه السورة وسورتي الإخلاص والناس في العلاقات الآتية:

العلاقة الأولى: الخلاص، والحماية والسلام:

ما أجمل هذا الخِتام للكتاب العظيم الذي جاء للأنام، يملأ حياتهم بالرَّحمة والحنان والسَّلام، فقد ناسب كما ترى أن يَخْتِم الله ﷻ المصحف بالحماية التَّامَّة للبشريَّة، فبعد أن أعلمها الله ﷻ أن خلاصها في إخلاصها في توحيدها له في سورة الإخلاص، أعطاها ﷻ هديَّة عظيمة سَنِيَّةً، هي عبارة عن نورين يمنحانها الحماية التَّامَّة العظيمة، هما سورة الفلق وسورة الناس:

فسورة الفلق: حماية القوَّة الرَّبَّانيَّة العظيمة من الشرور العامَّة والخاصَّة الظاهرة، والغامضة فالفلق يبصرك بالقوة الضخمة التي تنتج عن فلق الاستعاذة من الشرور الخارجية، حيث ينجي منها رب الفلق، فكما يفلق النواة فإنه يفلق الشرور الخارجية الدقيقة والخفية والغامضة.

وسورة الناس: ختام القرآن بإظهار المصلحة العليا للناس، فهي أحد أعظم مقاصد التَّنزيل القرآني.

فاسمها يدل على ذلك، وموضوعها يدور حول: حماية الناس من أساس الشرور المحطِّمة للناس: شرِّ الوسواس، والوسوسة السيئة، ولذا قرَّرت أن موضوع سورة الناس: (المحافظةُ الرَّبانيَّةُ على الإنسانيَّةِ وحمايتُها مِنْ أصلِ الشُّرورِ الخَفِيَّةِ).

فالمُعَوِّذتان توجيه من الله ﷻ لنبيِّه ﷺ ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعًا، للعياذ بكَنَفِهِ، واللِّياذ بحِمَاه.

العلاقة الثانية: التعظيم والالتجاء والفرار:

في سورة الإخلاص أمر الله ﷻ عبده ﷺ أن يُعَرِّف الخلق به بأوصافٍ عظيمة فخمة تجعل السامع غير المعاند يخشع في محرابه، ويبادر إلى متابه، ويشعر بعظمة ربه وتَعَالِيهِ ومَجْدِهِ الذي لا يمكن أن يكون له كفء يقاربه في الدنيا، فإذا امتلأت نفسه بتعظيم ربه ﷻ، شعر بالحاجة الهائلة إلى أن يفرَّ إليه مستعيذًا به، وهنا جاءت السورتان المباركتان الفلق والناس تعلِّمان الإنسان، وقد شعر بهذا التَّعظيم الفخم في سورة الإخلاص ألَّا يترددَّ في التعوُّذ بربِّ الفلق وربِّ الناس حتى يحميه الله الأحد الصمد من شرور الخلق.

بصيرة: سورة الإخلاص تعرِّف الخلقَ بالله ﷻ بذكرِ أوصافٍ عظيمة فخمة له ﷻ، تجعل السامع غير المعاند يخشع في محرابه، ويبادر إلى متابه، ويشعر بعظمةِ ربه وتَعَالِيهِ ومَجْدِهِ الذي لا يمكن أن يكون له كفءٌ يقاربه في الدنيا.

العلاقة الثالثة: الفلق والناس هدية الختام بعد اكتمال معالم الدين في القرآن:

فقد افتُتح القرآن بالتعريف بالإسلام في سورة الفاتحة، واختُتم بالأمر بالإخلاص في سورة الإخلاص:

ومال البقاعي ﷺ إلى هذه العلاقة الخاصة، فقال: «لما افتتح سبحانه وتعالى هذا الذكر الحكيم بالهداية في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وبالهداية والتقوى التي هي شعار التائب في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وذلك أول منازل السائرين، وختم بتقرير أمر التوحيد على وجه لا يُتَصَوَّرُ أن يكون أكمل منه، وتقرير الإخلاص فيه كما يشعر به الأمر بـ﴿قُلْ﴾، وذلك هو نهاية المقامات عند العارفين، فتمَّ بذلك الدِّين، وانتهى سير السالكين، وختم الإخلاص المقررة لذلك بأنه تعالى لا كفوء له، فتوفرت الدواعي على الانقطاع إليه والعكوف عليه:

وأَلْقَتْ عَصَاها واطْمَأَنَ بها النَّوى ... كما قَرَّ عَيْنًا بالإِيابِ المسافرُ[1]

(١) كذا عند البقاعي، وشطر هذا البيت وجدته بلفظ: (فألقَتْ عصاها واستقرّت بها النَّوَى)، فيما وقفت عليه من مصادر، وفي بعضها بلفظ: (واستقرَّ)، والبيت لمُعَقِّر بن أوس بن حمار (ت نحو ٤٥ ق. هـ) في الاشتقاق (ص ٤٨١)؛ وإيضاح شواهد الإيضاح (١/ ٥٦١)، وله أو لعبد ربِّه السلميِّ أو لسليم بن ثمامة الحنفي في لسان العرب (١٥/ ٣٤٧)؛ ولمُضَرِّس الأسدي كما في البيان والتبيين للجاحظ (٣/ ٢٧)، وبلا نسبة في العين (٢/ ١٩٧)، معاني القرآن للأخفش (١/ ٢١٣)، ومقاييس اللغة (٤/ ٣٣٥).

أمر بالتعوذ برب هذا الدين، موافقة لإياك نعبد وإياك نستعين، من شر ما يقدح فيه بضرر في الظاهر أو في الباطن»[1].

العلاقة الرابعة: لمَّا شرح الله ﷻ أمر الإلهية في سورة الإخلاص شرح في السورتين بعدها مراتب مخلوقاته التي قد ينبثق عنها كلُّ شرٍّ موجود في الكون ليزداد المرء لربِّه ﷻ إخلاصًا، وبمناجاته إيناسًا:

فشرورُ العالمِ كلُّها لا تخرج عن الشرور الأربعة المذكورة في سورة الفلق، والشر الخامس المذكور في سورة الناس، ومال الرازي ﵀ إلى تفصيل طويل هنا لم أَمِلْ إلى ذكره[2].

العلاقة الخامسة: الشرور الأربعة في سورة الفلق ترتبط بأصل العدوِّ الذي يثير الشَّرَّ في العالم وهو الوسواس الخناس الذي ذكرته سورة الناس، فإن عجز عن إثارة واحدة من الأربعة الشرور لجأ إلى فعله الخاص الخطير، وهو ما نبهت عليه سور الناس:

وقد ذكر ابن تيمية ﵀ مناسبة جميلة عظيمة تبين -أيضًا- سرَّ ختم المصحف بسورة الناس، فقال: «وفي سورة الناس ذكر ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، فإنه مبدأ الأفعال المذمومة من الكفر والفسوق والعصيان، ففيها الاستعاذة من شرِّ ما يَدْخُلُ الإنسانَ من الأفعال التي تضره من الكفر والفسوق والعصيان، وقد تضمن ذلك الاستعاذة من شر نفسه.

وسورة الفلق فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عمومًا وخصوصًا؛ ولهذا قيل فيها: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، وقيل في هذه: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]؛ فإن فالق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما في الظلمة من الشر، وفالق الحب والنوى بعد انعقادهما يزيل ما في عُقَد

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٠٦).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٣٢/ ٣٦٧).

النفاثات، فإن فلق الحب والنوى أعظم من حلِّ عُقَد النفاثات، وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشُحِّهِ لا ينشرح صدره لإنعام الله ﷻ عليه، فربُّ الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشُحِّهِ، وهو -سبحانه- لا يفلق شيئًا إلا بخير، فهو فالق الإصباح بالنور الهادي، والسراج الوهَّاج الذي به صلاح العباد، وفالق الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابِّهم، والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والرزق، وهذا حاصل بالفلق، والرَّبُّ الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم يُستعاذ به ممَّا يضر الناس، فيُطْلَب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتدأ بإنعامه عليه، وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة، وإخراج الشيء من ضدِّه كما يُخْرِجُ الحيَّ من الميِّت والميتَ من الحيِّ، وهذا من نوع الفلق، فهو -سبحانه- قادر على دفع الضِّدِّ المؤذي بالضِّدِّ النافع»[1].

العلاقة السادسة: الإخلاص دعوة إلى الله، والمعوذتان حماية للداعية أثناء دعوته:

نقل الشيخ عطية محمد سالم رحمه الله أن العلاقة بين سورة الفلق وسورة الإخلاص أنه لما صرح تعالى بخالص التوحيد في سورة الإخلاص، وهي معركة الإيمان والشرك، ومثار الخلاف والخصومة بين النبي ﷺ وأعدائه، أَمَر ﷺ أن يتعوذ من شرور الخلق فلا يضروه[2].

ويرى الرازي رحمه الله علاقتين أخريين هنا، فيقول عن أولهما: «لَمَّا أَمَرَ بِقِرَاءَةِ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ تَنْزِيهًا لَهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الطَّاعَاتِ، فَكَأَنَّ الْعَبْدَ قَالَ:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٧).

(٢) أضواء البيان (٩/ ١٥٨).

إِلَهَنَا هَذِهِ الطَّاعَةُ عَظِيمَةٌ جِدًّا لَا أَثِقُ بِنَفْسِي فِي الْوَفَاءِ بِهَا، فَأَجَابَ بِأَنْ قَالَ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، أَيِ اسْتَعِذْ بِاللهِ، وَالْتَجِئْ إِلَيْهِ حَتَّى يُوَفِّقَكَ لِهَذِهِ الطَّاعَةِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ»، ويقول عن ثانيهما: «أَنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا سَأَلُوا الرَّسُولَ عَنْ نَسَبِ اللهِ وَصِفَتِهِ، فَكَأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: كَيْفَ أَنْجُو مِنْ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالِ الَّذِينَ تَجَاسَرُوا، وَقَالُوا فِيكَ مَا لَا يَلِيقُ بِكَ؟ فَقَالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، أَيِ: اسْتَعِذْ بِي حَتَّى أَصُونَكَ عَنْ شَرِّهِمْ»[(١)].

وهنالك وجه من المناسبة لطيف المدرك، وهو:

التناسب بين بدء تلاوة كتاب الله بالاستعاذة عملًا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النحل: ٩٨]، وختمها بالمعوذات بما يؤكد حاجة العبد لحفظ الله وكلاءته في مقادم الأمور وخواتمها، وأوائلها ونهاياتها، وأول ما يدخل في ذلك حفظ الله ﷻ على العبد إيمانه وانتفاعه بكلام ربه –عز ذِكْرُه–.

(١) تفسير الرازي (٣٢/ ٣٦٩).

الأساس الثَّالث: اسم السورة

الوارد على لسان النبي ﷺ تسميتها بأول آية فيها: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه «كُنْتُ أَقُودُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ نَاقَتَهُ، قَالَ: فَقَالَ لِي: «أَلَا أُعَلِّمُكَ سُورَتَيْنِ لَمْ يُقْرَأْ بِمِثْلِهِمَا؟» قُلْتُ: بَلَى. فَعَلَّمَنِي ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»، فَلَمْ يَرَنِي أُعْجِبْتُ بِهِمَا، فَلَمَّا نَزَلَ الصُّبْحَ فَقَرَأَ بِهِمَا، ثُمَّ قَالَ لِي: «كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عُقْبَةُ؟»[(١)].

وبوَّب البخاري رحمه الله لها، فقال: باب: تفسير سورة: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ، جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»[(٣)].

وبوَّب البخاري رحمه الله أيضًا: (باب: فضل المعوِّذات)، ثم نقل عن عائشة رضي الله عنها هذه التسمية في رواية عنها، فعَنَتْ بذلك الْمُعَوِّذَتَيْنِ[(٤)]، ويحتمل إدخال سورة الإخلاص معهما.

---

(١) أحمد (١٧٣٥٠)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٢) كذا في نسخة دار ابن كثير، بتحقيق د. مصطفى البغا (٤/ ١٩٠٤)، وفي نسخة السلطانية (٦/ ١٨١)، عنوان الباب: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، دون: (باب: تفسير سورة).

(٣) البخاري (٥٠١٧).

(٤) ينظر: صحيح البخاري، طبعة دار ابن كثير، بتحقيق د. مصطفى البغاء (٤/ ١٩١٦).

وسمَّاها الجاحظ: المُعَوِّذَة[1]، ولم يذكر أحد من المفسرين أن الواحدة منهما تسمى المعوِّذة بالإفراد، والمشهور بهذا الاسم سورة الإخلاص[2]، وقد سماها ابن عطية سورة المعوِّذة الأولى، فيما نقله عنه ابن عاشور، ولم أجد ذلك عند ابن عطية[3]

التسمية بالمُعَوِّذتين تشعرك بأن سورتي الفلق والناس مَعَاذان، تتعوذ بهما عندما تكون خائفًا تريد الأمن، وعندما تكون قلقًا تريد الاطمئنان، وعندما تكون مضطربًا سيئ الأحوال تريد السكينة والهدوء وراحة البال، وعندما تكون مشتَّتًا تريد الاستقرار وجمع الأحوال.

وسمَّاها بعض المفسِّرين مع سورة الناس بـ(المُقَشْقِشتين) بتقديم القاف على الشين[4]، وجعل بعضهم هذا الاسم لسورتي الكافرون والإخلاص، أي: تبرِّئان من الشرك والذنوب والنفاق، ومن قولهم: تقشقش المريض إذا صحَّ[5]، في حين جعل بعضهم هذا الاسم للسُّوَر الأربع[6].

---

(١) الرسائل الأدبية (ص١٢٢).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٣٢/ ٣٥٧).

(٣) التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٣).

(٤) ينظر: تفسير الماوردي=النكت والعيون (٦/ ٣٧٣).

(٥) ينظر: تفسير السمعاني (٦/ ٣٠٣)، غرائب التفسير وعجائب التأويل (٢/ ١٣٩٩)، الكشاف (٤/ ٨٠٨)، تفسير الرازي (٣٢/ ٣٥٨).

(٦) كما فعل الزمخشري والقرطبي. ينظر: الكشاف (٤/ ٨٠٨، ٨٢٤)، تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٥، ٢٥١).

وقال السخاوي ﵀: «ويقال لهما-أي الفلق والناس-: المُعَوِّذتان، والمُشَقْشِقَتان -بتقديم الشين على القاف- من قولهم: شَقْشَقَ البعير إذا هَدَر، وشقشق العصفور، وخطيب[(١)]، مشقشق وخطيب ذو شِقْشِقة، والشِّقشِقَة التي يخرجها البعير مِنْ فِيْهِ إذا هاج كالرِّئة، شَبَّهَ الخطيب بالفَحْل»[(٢)].

والأشهر من ذلك تسميتها بسورة (الفلق)، والتي تليها سورة (الناس)، وهما تسميتان شائعتان لدى أهل العلم عبر القرون، حتى سميتا بهذين الاسمين في المصاحف المتداولة، ولعلهما قديمتان يعودان إلى عهد النبوة، ويدل له ما قاله الحافظ ابن حجر ﵀: «أخرج البيهقي في الدلائل معنى ذلك بسند ضعيف في آخر قصة السحر الذي سحر به النبي ﷺ، أنهم وجدوا وَتَرًا فيه إحدى عشرة عقدة، وأنزلت سورة الفلق والناس، فجعل كلما قرأ آية انحلَّت عقدة»[(٣)].

---

(١) أي: مسترسل القول تشبيها له بالفحل الكريم من الإبل يهدر بشقشقة وهي كاللحم يبرز من فيه إذا غضب. قال ابن عاشور: "ولم أحقق وجه وصف المعوذتين بذلك". التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٤).

(٢) جمال القراء وكمال الإقراء (ص: ٩٤)، وسماهما بذلك أيضًا السيوطي في الإتقان (١/ ١٩٧).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٢٥).

الأساس الرابع

أهمُّ موضوعات السُّورَة

لا يظهر تعدُّدٌ في موضوعات السورة، بل موضوعها واحد واضح، وهو الاستعاذة من الشرور العامة والخاصة الظاهرة والغامضة، ولكن السورة انفردت بذكر شرور دقيقة بوصف موجز عميق خطير هائل، فهذه الشرور موضوعات مستقلة بذاتها، فكل منها يصلح للكلام حوله باستقلال، وسيظهر هذا من خلال الأساس السادس إن شاء الله؛ إذ شكَّل كل موضوعٌ محورًا للسورة.

الأساس الخامس

مدد السَّابقين من المفسِّرين في تحديد عمود السورة (الموضوع الكلِّي)

١) حدَّد البقاعي ﵀ موضوعها بدقَّة كبيرة؛ إذ يساعد اسمها المباشر على ذلك، فرأى أن مقصودها «الاعتصام من شر كل ما انفلق عنه الخلق الظاهر والباطن، واسمها ظاهر الدلالة على ذلك»[(١)].

وله ﵀ هنا ابتداء جميلٌ للسورة، فانطلق من موضوعها في بيان البسملة، فقال:

«﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾: (الذي له جميع الحَوْل). ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: (الذي استجمع كمال الطَّوْل). ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: (الذي أتمَّ على أهل وداده جميع النَّوْل، بالسَّلام مِنْ عَلِيِّ القول)»[(٢)] .

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٠٦)، وتأثر به فضلاء موسوعة التفسير الموضوعي. ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (٩/ ٤٦٤).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٠٦).

٢) وذكر الفيروزآبادي ﷺ أن: «معظم مقصود السُّورة: الاستعاذة من الشرور، ومن مخافة اللَّيل الدَّيجور، ومن آفات الماكرين والحاسدين»[١] .

فالكل يدور حول موضوع الاستعاذة من الشرور، ولا شك أن هذا لا بد أن يكون مضمَّنًا في عمود السورة (الموضوع الكلي)، وقد توصلت إلى أنه: **(التَّحصُّن بربِّ الفلق والبرية من الشرور الظاهرة والغامضة الخفيَّة).**

الأساس السادس: الخريطة الكلية للسُّورَة

وهنا نسأل: ما أهم المحاور التي تكونت منها هذه السورة المباركة؟

الجواب:

تكونت هذه السورة المباركة من خمسة محاور:

المحور الأول: الأمر بطلب المَعاذ الأعظم حماية من الشرور الظاهرة والغامضة ﴿قُلْ﴾ [الفلق: ١].

المحور الثاني: المستعيذ، وهو الضمير المستتر وجوبًا في قوله: ﴿قُلْ﴾ [الفلق: ١].

المحور الثالث: صيغة الاستعاذة: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١-٥].

المحور الرابع: المُستَعاذ به: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١].

المحور الخامس: المستعاذ منه، وهي أربعة أخطار:﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ٢-٥] .

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/ ٥٥٦).

الخطر الأول: شر الخلق ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، وهذا خطر عام يشمل كلَّ شرٍّ في الوجود، وكان يمكن الاكتفاء بالاستعاذة منه ليشعر الإنسان بالأمان، لكن الله ﷻ كأنه أراد أن يخبرنا عن أخطار خاصة من هذا الخطر العام، وهي الثلاثة الآتية:

الخطر الثاني: شر الغاسق إذا وقب ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾، وهذا خطر وقت محدَّد تزداد فيه الشرور.

الخطر الثالث: شر النَّفاثات في العقد ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾، وهذا صنفٌ خاصٌّ غامض من الناس أقاموا حياتهم على فعل الشرور، ومتابعة الخلق لإحداث الأذى بهم بطرقٍ خفية، وقد تكون النَّفْس الساحرة المشعوذة النافثة بعيدة عن الإنسان البريء.

وَهذا الثَّالِثُ: "صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ ذُو خُلُقٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَبْعَثَ عَلَى إِلْحَاقِ الْأَذَى بِمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ"[1] .

الخطر الرابع: شر الحاسد إذا حسد ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾، وهذا صنفٌ خاصٌّ من الشرور ينبعث شرُّه من داخله المظلم، فيستجيب له، ويبحث عن وسائل متعدِّدة لإيقاع الشَّرِّ بالمحسود.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٧).

الأساس السابع

الكلمات التي انفردت بها سورة (الفلق) ولم تتكرَّر في بقية السُّوَر.

من الأسس المهمة في اختيار عمود السورة (الموضوع الكلي) معرفة الكلمات المنفردة التي انفردت بها السورة، فلم تتكرر في أيِّ سورة أخرى من سُوَر القرآن، والكلمات المنفردة هنا:

١) ﴿ٱلۡفَلَقِ﴾: لم ترد هذه الكلمة بهذه الصيغة (المصدر) إلا في هذه السورة الكريمة، وقد وردت في سُوَر أخرى بصيغة اسم الفاعل، وذلك في موضعين في سورة الأنعام، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ [الأنعام: ٩٥]، ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، ووردت بصيغة الفعل الماضي المطاوع في قوله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، فظهر تميز هذه السورة بهذه الصيغة، وسميت السورة بها، واستبان أن لهذا أثرًا كبيرًا في اختيار عمود السورة (الموضوع الكلي).

٢) ﴿غَاسِقٍ﴾ [الفلق: ٣]: انفردت سورة الفلق بهذه الصيغة من هذه الكلمة (اسم الفاعل)، ووردت بصيغة المصدر في قوله تعالى: ﴿غَسَقِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، والغاسق هو ثاني الشرور التي أُمرنا أن نستعيذ منه في هذه السورة.

٣) ﴿وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]: لم ترد هذه الكلمة إلا في هذه السورة، وهي تدلُّ مع كلمة ﴿غَاسِقٍ﴾ التي قبلها على جنس الشرور الخفية التي تَحْدُث غالبًا في الليل عند اشتداد ظلمته؛ ولهذا كانت الحماية من الشرور الخفية من أسس اختيار عمود السورة (الموضوع الكلي).

٤) ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ [الفلق: ٤]: ولم ترد هذه الكلمة في غير هذه السورة، وهي تعبِّر عن أحد أصناف الشرور الغامضة التي يسبِّبُها هذا النوع من البشر (السحرة).

٥) ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]: وردت هذه الكلمة بصيغ أخرى، فوردت بصيغة المصدر: ﴿حَسَدًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، وبصيغة الفعل المضارع في موضعين: ﴿يَحْسُدُونَ﴾ [النساء: ٥٤]، ﴿تَحْسُدُونَنَاۚ﴾ [الفتح: ١٥]، ولكن هذه السورة اجتمعت فيها هاتان الكلمتان بصيغة اسم الفاعل والفعل الماضي، وهذا هو الشر الرابع التي يُستعاذ منه في هذه السورة.

وسيأتي في التفسير التفصيلي معاني هذه الكلمات، ووجه قوة التعبير بها، وجماله.

فكان لانفراد هذه السورة بهذه الكلمات أثر كبير في تمحور عمود السورة (الموضوع الكلي) حول الحماية من الشرور، ويمكن صياغته بأنه:

(التَّحصُّن بربِّ الفلق والبرية في دفع الشرور الظاهرة والغامضة الخفيَّة).

الأساس الثامن

الكلمات المتكرِّرة بصورة ملحوظة

من الأسس المؤثرة في اختيار أي عنوان ليكون عمودًا للسورة تتبع الكلمات التي تكررت في السورة، والناظر في هذه السورة يجد أن كلمة ﴿شَرِّ﴾ هي التي تكررت في هذه السورة، وهذه الكلمة موجودة (٢٦) مرة في القرآن الكريم، منها أربع مرات في سورة الفلق على الرغم من صغر حجمها، وهذا يدل على مركزية هذه الكلمة في هذه السورة؛ ولهذا لا بد أن تكون هذه الكلمة مؤثرة في اختيار عمود السورة (الموضوع الكلي).

وسيأتي في التفسير التفصيلي للسورة بيان معنى هذه الكلمة، وجمال التعبير القرآني بها.

وأنت إن تأملت هذه الأسس الثمانية وجدتها تتعاضد في استخراج عمود سورة الفلق (موضوعها الكلي)، وصياغته وهو:

(التحصن برب الفلق والبرية في دفع الشرور الظاهرة والغامضة الخفية).

التفسير التفصيلي وبصائر سورة الفلق

أهداف سورتي الْمُعَوِّذَتَيْن

أولًا: إظهار أن من أهمِّ مقاصد الشريعة مصلحة المخلوق، ودفع المضار التي يعرفها والتي لا يعرفها

ثانيًا: التنبيه إلى الأخطار الخفية التي تحيط بالإنسان

ثالثًا: التحذير من خطر شرِّ كلِّ مخلوق

رابعًا: تعليم النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأُمَّتِهُ كلماتٍ للتعوذ بالله عز وجل من شرِّ المخلوقات الشِّريرة

خامسًا: إخبار العالم بحقيقة الشَّرِّ وأنه موجود في الخلق، وأن الشر موجود إذا اختاره المخلوق، وليس لأن الله عز وجل يريد به شرًا

سادسًا: علَّمنا الله عز وجل في سورة الفلق الأوقات التي يكثر فيها حدوث الشَّر

أهداف سورتي الْمُعَوِّذَتَيْنِ:

وهنا نسأل: ما أهداف سورتي الْمُعَوِّذَتَيْنِ؟

الجواب: أهدافهما عظيمة، ومنها:

أولًا: إظهار أن من أهمِّ مقاصد الشريعة وأهدافها العظيمة مصلحة المخلوق، وتهيئة المنافع عليه، ودفع المضار التي يعرفها والتي لا يعرفها.

ثانيًا: التنبيه إلى الأخطار الخفية التي تحيط بالإنسان، وأنها موجودة وكثيرة.

ثالثًا: التحذير من خطر شرِّ كلِّ مخلوق، فإنَّ كلَّ مخلوق قد يصدر عنه شرٌّ سواء قَصَده أم لم يَقْصُده إلا أن يكون معصومًا كالملائكة والأنبياء.

ويضاف إلى هذا ما ذكره ابن عاشور ﵀ من الأهداف، وهي:

رابعًا: تعليم النبيِّ ﷺ وأُمَّتِهُ كلماتٍ للتعوذ بالله ﷻ من شرِّ المخلوقات الشِّريرة.

خامسًا: إخبار العالم بحقيقة الشَّرِّ وأنه موجود في الخلق، كما أن الخير موجود في فعل الله وخلقه، وأن الشر موجود إذا اختاره المخلوق، وليس لأن الله ﷻ يريد به شرًا.

سادسًا: علَّمنا الله ﷻ في سورة الفلق الأوقات التي يكثر فيها حدوث الشَّر، والأحوال التي تستر الشَّر من ورائها لئلا يرمى فاعِلُوها بتبعاتها[1].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٤٧).

الخريطة الكلية لتفسير سورة الفلق

عمود سورة الفلق (موضوعها الكلي)

التحصن برب الفلق والبرية في دفع الشرور الظاهرة والغامضة الخفية

المحور الأول: الأمر بطلب المَعاذ الأعظم

حماية من الشرور الظاهرة والغامضة ﴿قُلْ﴾

[الفلق: 1]

المحور الثاني: المستعيذ

وهو المستجير بالله المعتصم به من أنواع الشرور ونأخذه من الضمير المستتر وجوبًا في قوله: ﴿قُلْ﴾

[الفلق: 1]

المحور الثالث: صيغة الاستعاذة:

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

[الفلق: 1-5].

المحور الرابع: المُستَعاذ به:

﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾

[الفلق: 1].

والاستعاذة بالله تثمر الحماية والسكينة، والحفظ والرعاية ومنع الأعداء من الوصول إلى المستعيذ

المحور الخامس: المستعاذ منه

وهي أربعة أخطار: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

[الفلق: 1-5].

المحور الأول

الأمر بطلب المعاذ الأعظم حماية من الشرور الظاهرة والغامضة

﴿قُلْ﴾ [الفلق: ١]

هنا نسأل: لماذا ابتدأت هذه السورة المباركة بهذه الكلمة العظيمة: ﴿قُلْ﴾؟

الجواب:

هذه الكلمة القرآنية المباركة تكرَّرت في القرآن المجيد أكثر من (٢٧٠) مرة، والبداية بهذا التوجيه العظيم ﴿قُلْ﴾، وهو توجيه بدأت به القواقل الأربع: الكافرون، والإخلاص، والفلق، والناس، وهنا لا بدَّ أن نتساءل: فهناك سورة خامسة بدئت بـ﴿قُلْ﴾ هي سورة الجن، ولكن هذه الأربع لها خصوصية، فما الحكمة العظيمة الجميلة من هذا البدء المميَّز لهذه "الأربع القواقل"؟

أما أولًا: فهو بدء مميز عظيم يجعل الإنسان يستجيب لأمر ربه جلَّ مجده، فهو يقول له: ﴿قُلْ﴾، فينبغي أن يقول ويردِّد، دون أن يتردَّد.

وأما ثانيًا: فإن الذي يأمر بأن نقول هو الله ﷻ، والله ﷻ يريد بعباده اليسر، وأن يبين لهم لئلا يضلوا، ويريد أن يبين لهم، ويهديهم سنن الذين من قبلهم، ويتوب عليهم، ويريد أن يخفِّف عنا.. إذن هذا البدء يحمل معه ما لا يمكن بيان مقداره ولا وصفه من الحنان الإلهي والرحمة الرَّبَّانيَّة ومحبة الخير للإنسانية.

> **بصيرة: البدء بكلمة ﴿قُلْ﴾ يحمل معه ما لا يمكن بيان مقداره ولا وصفه من الحنان الإلهي والرحمة الرَّبَّانيَّة ومحبَّة الخير للإنسانية.**

و﴿قُلْ﴾ كلمة مشرقة منيرة تكشف لنا جانبين متقابلين:

الجانب الأول يظهر في هذا المحور، وهو الجانب الإلهي أي جانب الله ﷻ الذي يأمر بها، أما الجانب الثاني فيظهر في المحور الثاني، وسيأتي ذكره.

بصيرة: علم الله ما يحيط بالبشرية من الشرور ويتربص بها من الأخطار فأرشدها -رحمة بها- إلى الاستعاذة بجنابه، والتحصن بركنه المتين.

وهنا ينشأ سؤال: لماذا يأمرنا الله ﷻ أن نقول ذلك؟ هل ذلك للرقية بها؟ أو لما هو أوسع من الاسترقاء؟

الجواب: أمرنا الله ﷻ أن نقرأ الْمُعَوِّذَتَيْنِ لسببين يشملان كلَّ شؤون الحياة:

السبب الأول: للحماية العامَّة أي: للدَّفع لكلِّ ما يأتي من شقاء:

فالله ﷻ يأمرنا أن نقول لعِظَم الحنان، والامتنان على عباده؛ إذ يوجهنا في أدقِّ التفاصيل أن نقول ما ينفعنا، وتعكس لنا هذه الكلمة المباركة المقدار العظيم لعناية الله ﷻ بعباده، وتوضِّح لنا أنه يرحمنا، ويرعانا، ويدبِّر أمورنا، ويريد بنا اليسر والخير.

فتكرار الْمُعَوِّذَتَيْنِ يمثِّل حماية عامة من أي بلاء أو شقاء يمكن أن يصيبنا من الجنِّ أو الإنس أو غيرهما.

بصيرة: تعكس لنا هذه الكلمة المباركة ﴿قُلْ﴾ المقدارَ العظيم لعناية الله ﷻ بعباده، وتوضِّح لنا أنه يرحمنا، ويرعانا، ويدبِّر أمورنا، ويريد بنا اليسر والخير.

السبب الثاني: للرُّقْيَة، والرفع للبلاء:

فما معنى الرقية؟

الجواب: من رقى[1] فِي السُّلَّمِ يرْقَى رُقِيًّا، كما قَالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ومنه: "رَقَى الطائر (كسعى): سما وارتفع (يلحظ أن الطائر يرتفع بلطف لا بمشقة)، ورَقِيَ في السُّلَّم (كرَضِيَ): صَعِدَ فيه، ولعله من هذا أخذت الرُّقْيَة، فقيل: رَقَيْتُ الإِنْسَانَ، لأنه يصعد عن انحطاط المرض، فـ"الرُّقْيَة -بالضم-: العُوذَة التي يُرْقَى بها صاحب الآفة"، فيقصد بالرُّقْيَة: رَفْع المرض بلطف ليخِف المريض، وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ [القيامة: ٢٧]، أي: من يَرْقِيهِ تنبيهًا أنه لا رَاقِي يَرْقِيهِ فيحميه، وذلك إشارة إلى نحو ما قال الشاعر:

وإِذا الـمَـنِـيَّـةُ أَنْشَـــبَـتْ أَظْـفـارَهـا ... أَلْـفَـيْـتَ كـلَّ تَـمـيـمـةٍ لَا تَـنْـفَـعُ[2]

والرُّقْيَة جائزة إذا كانت رُقْيَة شرعية، وهي ما اجتمع فيها ثلاثة أمور:

١) أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته أو المأثور عن النبي ﷺ.

٢) أن تكون باللسان العربي وما يعرف معناه، فلا يرقي الإنسان بالأسماء المجهولة.

٣) أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى[3].

فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ»[4]، ورقى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه بسورة الفاتحة لديغًا مريضًا، فنفعه الله عز وجل به[5]، ومن الرقى التي

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ٤٢٦)، المفردات في غريب القرآن (ص٣٦٣)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٨٣٦).

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في شعر الهذليين. ينظر: ديوان الهذليين (١/ ٣).

(٣) فتح الباري (١٠/ ١٩٥).

(٤) مسلم (٢٢٠٠).

(٥) الحديث في صحيح البخاري (٥٧٣٦)، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١٩/ ٢٠).

وردت عن النبي ﷺ: «بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيءٍ يؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ، أَوْ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ، بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ»(١).

ويضع يده على موضع الألم، ويقول: «بسم الله (ثلاثًا) ويقول: (سبع مرات): «أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وأُحَاذِرُ»(٢)، والرُّقْيَة الشرعية تنفع من العين والسحر والمسِّ وكذا الأمراض العضوية، ومما يسترقى منه العين، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : «أمرني النبي ﷺ أو أمر النبي ﷺ أن يُسْتَرْقَى من العَينِ»(٣)، وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي بَيْتِهَا جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ، فَقَالَ: «اسْتَرْقُوا لَهَا، فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ»(٤).

والأحاديث في مشروعية الرُّقْيَة كثيرة، ومن أنفع الرقى التي تقي من السحر والأمراض هاتان المُعَوِّذتان المباركتان.

وعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها أَخْبَرَتْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، طَفِقْتُ أَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ»(٥)، وفي رواية: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنْفُثُ عَلَى نَفْسِهِ فِي المَرَضِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنْفِثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِهَا» فَسَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ: كَيْفَ يَنْفِثُ؟ قَالَ: «كَانَ يَنْفِثُ عَلَى يَدَيْهِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ»(٦)، وعَنْها

(١) مسلم (٢١٨٦).

(٢) مسلم (٢٢٠٣).

(٣) البخاري (٥٧٣٨).

(٤) البخاري (٥٧٣٩)، (سَفْعَةٌ): صفرة وشحوبًا. (النَّظْرَةَ) أي: أصابتها العين.

(٥) البخاري (٤٤٣٩).

(٦) البخاري (٥٧٣٥).

ﭭ، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ نَفَثَ فِي يَدَيْهِ، وَقَرَأَ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَمَسَحَ بِهِمَا جَسَدَهُ»[1].

وعَنْ مُحَمَّدِ بن حَاطِبٍ ﭬ، قَالَ: وَقَعَتِ الْقِدْرُ عَلَى يَدِي فَاحْتَرَقَتْ، فَانْطُلِقَ بِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ يَتْفُلُ فيها، وَيقُولُ: «أَذْهِبِ الْبَأْسَ رَبَّ النَّاسِ»، وَأَحْسَبُهُ، قَالَ: «وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي»[2]، وفي رواية: فَرَقَانِي، فَقَالَ: «أَذْهِبِ الْبَأْسَ رَبَّ النَّاسِ وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لا شَافِيَ إِلا أَنْتَ»، قَالَ: فَلَمْ أَحْفَظِ الْكَلِمَاتِ، فَسَأَلْتُ أُمِّي عَنْهُنَّ، فَأَخْبَرَتْنِي فِي زَمَنِ عُثْمَانَ[3].

جسر الاتصال:

إذا كان المحور الأول قد عُنِي ببيان الأمر بطلب المعاذ الأعظم حماية من الشرور الظاهرة والغامضة، فإن المحور الثاني قد عُنِي بالمستعيذ، وهو المستجير بالله ﻷ، المعتصم من أنواع الشرور، وهما الاثنان مضمنان في اللفظة المباركة ﴿قُلْ﴾، إنها لفظة تختصر المسافة بين الخالق الرحيم والعباد المرحومين، وتلخص لك طبيعة علاقته بهم وشفقته بهم من الشرور والنوائب، فهل من مظهر أجلى ومستوى أعلى للرحمة والرأفة بهم من إرشادهم إلى ما به يتحصنون، ومن مكائد عدوهم يتخلصون؟

(١) البخاري (٦٣١٩)؛ ابن ماجه (٣٨٧٥)، واللفظ له.

(٢) أحمد (١٨٢٨١)، وقال محققو المسند: صحيح، وهذا إسناد حسن.

(٣) المعجم الكبير للطبراني (١٤ / ١٣٣) رقم (١٥٨٧٩)؛ والحديث عن أحمد في المسند (٢٦٨٢١) بهذا اللفظ من حديث ميمونة، دون لفظ : "فَلَمْ أَحْفَظِ الْكَلِمَاتِ، فَسَأَلْتُ أُمِّي عَنْهُنَّ، فَأَخْبَرَتْنِي فِي زَمَنِ عُثْمَانَ"، وقال محققو المسند: "صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن".

المحور الثاني

المستعيذ، وهو المستجير بالله المعتصم به من أنواع الشرور

ونأخذه من الضمير المستتر وجوبًا في قوله: ﴿قُلْ﴾ [الفلق: ١]

هنا يظهر الجانب الثاني لكلمة ﴿قُلْ﴾، وهو الجانب الإنساني، أي: جانب الإنسان الذي يجب أن يتلقاها ويطبقها وينفذ فحواها، وهذا يعني أن يكون ما بعدها قولًا نردِّده في أنفسنا وأهلنا وأولادنا وحياتنا، وأن يكون التحصن بالله ﷻ والاستعاذة بجنابة مسلكا حياتيًّا للفرد والجماعة، وأن نجعل منها ثقافة مجتمعية في وسائل الإعلام والتعليم والتوجيه والتثقيف والتربية، فقد أمرنا أن نقول، فينبغي لنا أن نقول، ونشيع هذا القول ليعلمه الناس أجمعون.

والمعنى: «﴿قُلْ﴾ أي: لكلِّ من يبلغه القول من جميع الخلائق تعليمًا لهم وأمرًا، فإنهم كلُّهم مربوبون مقهورون لا نجاة لهم في شيء من الضرر إلا بعصمته ﷻ، فعلى كلٍّ منهم أن يفزع أول ما تصيبه المصيبة إلى مولاه القادر على كشفها تصحيحًا لتوكُّلِه، فإنه يرتقي بذلك إلى حال الرضا بِمُرِّ القضاء، ولا يأخذ في الاعتماد على جَلادته وتدبيره بحوله وقوَّته، فإنه يشتدُّ أسفه، ولا يرد ذلك عنه شيئًا»[(١)].

بصيرة: **لا يستغني الإنسان عن حماية الله وحفظه طرفة عين، ولذا علمه ربه كيف يبقى متصلًا بقوته، مستمدًا الحفظ والصيانة منه سبحانه.**

بصيرة: **﴿قُلْ﴾ أنت في نفسك يا محمد متعوِّذًا بربك، مستجيرًا، و﴿قُلْ﴾ للناس مبلِّغًا إياهم، مرشدًا لهم إلى أقوى الحصون وآمنها من كلِّ المخاطر والشرور.**

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٠٦).

المحور الثالث: صيغة الاستعاذة

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ١-٥].

الآن وصلنا إلى صيغة الاستعاذة في هذه السورة، فنفاجأ بأنها كلَّها من أوَّلها إلى آخرها تَعوُّذٌ، ومن أراد تحقق الحماية فلا بدَّ له أن يقرأها كلَّها بما فيها كلمة ﴿قُلۡ﴾، فلماذا؟

أما وقد وصلنا إلى ذلك؛ فإن السؤال يطرح نفسه: كيف يكون ذلك؟ كيف نمتثل أمر الله ﷻ الذي فيه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١﴾، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، بأن نعيد لفظ الأمر والمأمور به؟ مع أنه إذا قيل لأحد: "قل: الحمد لله"، "قل: سبحان الله"، فإن امتثاله أن يقول: "الحمد لله، وسبحان الله"، ولا يقول: "قل: سبحان الله"، فلماذا اختلف الشأن في هذه السورة عند إرادة التَّعوُّذ بها؟

الجواب:

أولًا: إن أردنا الامتثال لقول الله ﷻ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فإننا سنقول: هو الله أحد، وإن أردنا الامتثال لقول الله ﷻ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] فإننا سنقول: أعوذ برب الفلق، وإن أردنا الامتثال لقول الله ﷻ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] نقول: أعوذ برب الناس..

والامتثال هنا يعني أن نستجيب للأمر بترديد ما أُمِرْنا بترديده، ففي سورة الإخلاص يكون الترديد لبيان صفة الله ﷻ لمن يتساءل عنه، وفي سورتي الْمُعَوِّذَتَيْنِ يكون الترديد لبيان حماية الله ﷻ للعبد من الشرور المذكورة، ولكن المقصود من التَّعوُّذ: التَّعوُّذ بهذه الكلمات وبالقرآن نفسه، وهذا لا يتحقق إلا بقراءة كل كلمة فيه، بما في ذلك كلمة ﴿قُلۡ﴾.

ومما يوضح ذلك أنك إذا أردت أن تمتثل قول الله ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، فإنك ستقول مخاطبًا الكفار: يأيها الكافرون، أما إذا أردت تستشفي بسورة الكافرون أو تستعيذ بها فإنك ستردِّدها كلَّها.

ثانيًا: لو كان في غير القرآن لكانت الاستعاذة تبدأ بما بعد القول، ولكن لأنه القرآن فإن الاستعاذة تكون بكلِّ الكلمات، والأمر كما يقرِّر ابن القيم رحمه الله: «أمرٌ محضٌ بإنشاء الاستعاذة لا تبليغ لقوله: "أعوذ برب الناس"، فإن الله ﷻ لا يستعيذ من أحدٍ، وذلك عليه محال»(١).

ورأى ابن عاشور رحمه الله أن الذي جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه في عدم إثبات المعوذتين في المصحف له تأويل صحيح واضح، عندما قال: «قِيلَ لِي قُلْ، فَقُلْتُ لَكُمْ، فَقُولُوا» يريد بذلك المحافظة على هذه الألفاظ للتَّعوُّذ؛ وإذ قد كانت من القرآن فالمحافظة على ألفاظها متعينة، والتَّعوُّذ يحصل بمعناها، وبألفاظها حتى كلمة ﴿قُلۡ﴾(٢)، فكأن ابن مسعود رضي الله عنه يرى وجوب حفظهما وترديدهما، ولعل كتابتهما في المصحف يجعل الناس يركنون إلى المكتوب، فيَفْتُرون عن الحفظ(٣).

ثالثًا: يقرِّر ابن القيم رحمه الله أن هذا هو السؤال الذي أورده أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه على النبي ﷺ بعينه وأجابه عنه رسول الله ﷺ، فعن زرٍّ بن حبيش رحمه الله قال: "سألت أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه عن الْمُعَوِّذَتَيْنِ، فقال: «سألت رسولَ اللَّه ﷺ، فقال: قِيلَ لي فقلت، فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»(٤).

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٥).

(٣) لي كلام مستقل عن هذا الموضوع في كتابي: المنهج النبوي في التعليم القرآني (ص: ٤٩٥).

(٤) البخاري (٤٩٧٦).

ثم ساق حديث زرٍّ بن حبيش ﵀ سأل أُبيَّ بن كعب ﵁: أبا المنذر إن أخاك ابنَ مسعود يقول كذا وكذا، فقال: «إني سألت رسولَ الله ﷺ، فقال: «قِيْلَ لي، فقلتُ: قُل»، فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»[1].

قلت: مفعول القول محذوف، وتقديره: "قيل لي: قل"، أو: قيل لي هذا اللفظ، فقلت كما قيل لي.

وتحت هذا من السر أنَّ النبيَّ ﷺ ليس له في القرآن إلا بلاغه، لا أنه هو أنشأه من قِبل نفسِه، بل هو المبلِّغ له عن الله ﷻ. وقد قال الله ﷻ له: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١﴾ فكان مقْتضَى البلاغ التام أن يقول: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١﴾، كما قال الله ﷻ. وهذا هو المعنى الذي أشار إليه ﷺ بقوله: «قيل لي فقلت" أي: فلستُ مبتدئًا، بل أنا مبلِّغ أقولُ كما يقال لي، وأبلِّغ كلامَ ربى كما أنزله إليَّ»[2].

بصيرة: تبصرنا لفظة ﴿قُلۡ﴾ في المعوذتين وتثبت أن القرآن وحي من الله ﷻ، وليس للنبي ﷺ فيه إلا وظيفة البلاغ دون التدخل بأدنى تصرف في ألفاظه.

ولو كان المطلوب ذكر الكلام بعد كلمة ﴿قُلۡ﴾ في القرآن المجيد؛ لكان ينبغي أن يقول ما بعد كلمة ﴿قُلۡ﴾، ففي قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٠] يقول: ﴿رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾.

وإما إذا كان التَّعوُّذ بكلمات القرآن ذاتها، فيجب أن يردِّد الكلام كلَّه كما في الْمُعَوِّذَتَيْنِ.

(١) البخاري (٤٩٧٧).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٧٠٦).

ويقرِّر ابن عاشور ﵀ أن الأمر بالقول يقتضي المحافظة على هذه الألفاظ؛ لأنها التي عَيَنَّها الله ﷻ للنبي ﷺ ليتعوَّذ بها فإجاباتها مرجوة؛ إذ ليس هذا المقول مشتملًا على شيء يكلف به أو يعمل حتى يكون المراد: قل لهم كذا كما في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وإنما هو إنشاء معنى في النفس تدلُّ عليه هذه الأقوال الخاصَّة[1].

وهنا نسأل: ما معنى هذا الفعل الكبير الذي أمرنا الله ﷻ بقوله: ﴿أَعُوذُ﴾ وما مدى قوته وجماله في هذا السياق؟

الجواب: هذا الفعل المضارع ﴿أَعُوذُ﴾ مشتق من كلمة (عاذ) [2]، وتعني: لجأ، ولَاذَ، واحتمى واعتصم مستنصرًا بقوَّة ما هاربًا من شيء يخافه، وتلمس في (العَوذ) معنى القدرة على الدفاع عنه مثل أن يكون صُلْبًا عظيمًا قويًّا، فإن وجده لزمه لزومًا متماسكًا جدًّا، حتى التصق به أو كاد، وحينها يجد الحماية لئلا يحلَّ به ما يكره ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

ومنه "العُوَّذ من اللحم، وهو ما عاذ (من اللحم) بالعَظْم ولَزِمه، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلَّتِي اسْتَعَاذَتْ مِنْهُ: «قَدْ عُذْتُ بِمَعَاذٍ»[3] أي: معاذ عظيم لا يمكن أن يخفر أو يخرق.

فعندما يلتجئ المستعيذ إلى المعاذ يستتر به كما يستتر النبات الصغير بالشجر الكبير، فالعرب تقول للنبات الذي ينمو في أصل الشجرة مستترًا بها: "عُوَّذ" بضم العين وتشديد الواو وفتحها، فيكسب من هذا التَّعوُّذ أمرين: الاستتار، والحماية من العاديات والأضرار.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٥).

(٢) مقاييس اللغة (٤/ ١٨٣)، المفردات في غريب القرآن (ص٥٩٤)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٤٢٦).

(٣) البخاري (٥٢٥٥).

بصيرة: تبصرنا لفظة ﴿أَعُوذُ﴾ بضرورة الإنسان ومسيس حاجته إلى حفظ ربه إياه، ودوام إسبال ستره عليه، فيجعل من الاستعاذة به شعاره ودثاره.

«فإن المستعيذ مستتر بمعَاذه متمسِّك به معتصم به، قد استمسك قلبه به ولزمه، كما يلزم الولد أباه إذا شَهَر عدوه سيفًا، وقصده به، فهربَ منه فعرضَ له أبوه في طريق هربه، فإنه يُلقي نفسَه عليه ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائذ قد هرب من عدوِّه الذي يبغي هلاكَه إلى ربِّه ومالكه، وفرَّ إليه وألقى نفسه بين يديه واعتصم به واستجار به والتجأ إليه»(1).

بصيرة: عندما يلتجئ المستعيذ إلى المعاذ يستتر به كما يستتر النبات الصغير بالشجر الكبير، فيكسب من هذا التَّعوُّذ أمرين: الاستتار، والحماية من العاديات والأضرار.

هنا يأتي سؤال لا بد منه للمتدبرين، ويطرحه علينا ابن القيم ﵀ الأمين، فيقول: لِمَ دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل، كقوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨]، ولَمْ تدخل في الماضي والمضارع، بل الأكثر أن يقال: "أعوذ بالله"، و"عذْت بالله"، دون "أستعيذ" و"استعذت"؟

يجيب عن هذا الإمام ابن القيم ﵀ فيقول: «قلت: السين والتاء دالة على الطلب، فقوله: "أَسْتَعيذ بالله"، أي: أطلب العياذَ به، كما إذا قلت: "أَسْتَخير الله"، أي: أطلبُ خِيرتَه، و"أَسْتَغفره" أي: أطلب مغفرته، و"أَسْتَقِيله" أي: أطلب إقالته، فدخلت في الفعل إيذانًا لطلب هذا المعنى من المعاذ، فإذا قال المأمور: "أعوذ بالله"، فقد امتثل ما طُلِب منه؛ لأنه

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٠٤).

طَلَب منه الالتجاء والاعتصام، وفَرْق بين نفس الالتجاء والاعتصام، وبين طلب ذلك. فلما كان المستعيذ هاربًا ملتجئًا معتصمًا بالله ﷻ أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك، فتأمله.

وهذا بخلاف ما إذا قيل: "اسْتَغْفِرِ الله"، فقال: "أَستَغْفر الله"، فإنه طلب منه أن يطلب المغفرةَ من الله ﷻ، فإذا قال: "أَسْتَغْفِرُ الله" كان ممتثلًا؛ لأن المعنى أطلب من الله أن يغفر لي، وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين، فيقول: "أَسْتَعيذ بالله"، أي: أطلب منه أن يعيذني، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام، والالتجاء والهرب إليه فالأول: مخبر عن حالِه وعِياذِه بربه، وخبرُه يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه.

والثاني: طالب سائل من ربه أن يعيذه، كأنه يقول: أطلب منك أن تعيذني، فحال الأول أكمل.

ولهذا جاء عن النبي ﷺ في امتثال هذا الأمر: "أعوذ باللهِ من الشيطان الرجيم"، و"أعُوذ بكَلِمَات اللهِ التَّامات" - و"أعُوْذُ بعِزَّةِ اللهِ وَقدْرَتهِ" دون "أَسْتَعيذ"، بل الذي علمه الله ﷻ إياه أن يقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ دون "أَسْتَعيذ"، فتأمل هذه الحكمة البديعة»[1].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٠٥).

المحور الرابع: المستعاذ به: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]

فذكر ربُّنا ﷻ المستعاذ به في ثلاث كلمات: الباء، وكلمة رب، وكلمة الفلق.

فما وجه قوة الاستعاذة بهذه الكلمات (رب الفلق) في الموضوع الذي تدور حوله السورة؟

الجواب:

الكلمة الأولى: الباء للاستعانة العظيمة، فأنت تستعيذ أي تطلب المعاذ، وهو مكان العوذ أي: الحماية، والرعاية، والإغاثة، والإجارة، والحراسة، مستعيناً برب الفلق.

الكلمة الثانية: كلمة ﴿رَبِّ﴾: وهذه الكلمة المباركة تعني: سيِّد، وملك، ومالك، ومربِّي، أي: أعوذ بالسَّيِّد الملك المالك المربِّي للخلق حالًا فحالًا.

> **بصيرة: الاستعاذة بالله -جل مجده- تثمر الحماية، والسكينة، والحفظ، والرعاية، ومنع الأعداء من الوصول إلى المستعيذ.**

وبعض البشر يستعيذون بالذين يظنونهم أقوياء من المخلوقين، فمنهم من يستعيذ بالملوك الفاسدين، ومنهم من يستعيذ بالعصابات الدولية الخبيثة التي تعمل في إفساد البشرية بالدعارة والمخدِّرات، ومنهم من يستعيذ بالمخابرات المجرمة، ويظنون أنهم محصنون بهذه الاستعاذة من أن يسألهم أحد عن أيِّ شيء، ومنهم من يستعيذ بالجن كما قال مؤمنو الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قال فيها الحسن ﵀: «كان الرجل منهم إذا نزل الوادي فبات به، قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي من شرِّ سفهاء قومه»، وقال إبراهيم النخعي ﵀: «قالوا: نعوذ بسيِّد هذا الوادي من شرِّ ما فيه، فتقول الجنُّ: تتعوذون بنا ولا نملك لكم ولا لأنفسنا ضرًّا ولا نفعًا»، وعن قتادة ﵀: «قالوا: نعوذ بأعزِّ أهل هذا المكان؛ قال الله ﷻ: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: أي: إثمًا، وازدادت

الجنُّ عليهم بذلك جراءة، وعن الربيع بن أنس ﵀: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال: كانوا يقولون: فلان من الجنِّ ربُّ هذا الوادي، فكان أحدهم إذا دخل الوادي يعوذ بربِّ الوادي من دون الله ﷻ، قال: فيزيده بذلك رهقًا، وهو الفَرَق»(١).

وذكر الطبري ﵀ في معنى ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أقوالًا، وجمع بينها ﵀ بقوله:

«وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: فزاد الإنسُ الجنَّ بفعلهم ذلك إثمًا، وذلك زادوهم به استحلالًا لمحارم الله ﷻ. والرهق في كلام العرب: الإثم وغِشيان المحارم؛ ومنه قول الأعشى:

لا شَــيْءَ يَنْفَعُنِي مِنْ دُونِ رُؤْيَتِها هلْ يَشْتَفِي وَامِقٌ ما لم يُصِبْ رَهَقا»(٢)

ونجمع بينها بأن نقول: ازداد الجن عليهم جراءة وطغيانًا، فعبثوا بعقول الإنس بوساوسهم، فازداد الإنس خوفًا، ودفعهم ذلك إلى أن يزدادوا إثمًا وخطيئة وشركًا، فكان الرجلُ من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قَفْر، قال: أعوذ بسَيِّدِ هذا الوادي من شرِّ سفهاء قومه، فيبيت في أمنٍ وجوار منهم حتى يصبح، أيْ: فزاد الإنسَ الجنُّ باستعاذتهم بسادتهم رَهَقًا، أي: طغيانًا وإثمًا وشرًّا، يقولون: سُدْنا الإنسَ والجنَّ.

والظاهر أن الرهق: ألم وقلق وخوف يحدث عن قرب من جهة أخرى يزداد طغيانها، ويسبب ذلك ازديادًا في الإثم وارتكاب المحارم.

الكلمة الثالثة: كلمة ﴿ٱلْفَلَقِ﴾، وهي التي سُمِّيت السورة باسمها، إنها سورة الفلق، ما أعظم هذه الكلمة! وما أجلَّ التصوير الذي تقدِّمه! وما أفخم الصور التي تندرج تحتها لتدل

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٦٥٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ٦٥٦). والبيت للأعشى الكبير في ديوانة (ص: ٣٦٥)، (وامق): المحب، والرهق في البيت: الدنو من المحبوب والقرب منه، والتمتع بما ينوله كما قيل في شرحه.

عليها! فقد ناسب الاسم بصورة مدهشة طبيعة الحماية التي ينشدها الإنسان، والتعوذ الذي يبحث عنه.

ستقول: ما وجه جمال هذه الكلمة القرآنية، وقوتها؟

الجواب:

كلمة فلق[1]: تدل عَلَى فُرْجَةٍ وشقٍّ سببه انفلاق، أي: إبانة شيء عن شيء هو بعضه الذي كان ملتصقًا به شديد الالتصاق، فيشقُّ الشيء الشديد الكثافة شقًّا نافذًا إلى عُمْقِه، ويباعد بين أجزائه لينتج الفلق من الشيء المفلوق، فيقال: فَلَقْتُ الشَّيْءَ أَفْلِقُهُ فَلْقًا، كفَلَّقه فانْفَلَق وتفلَّق، وَبذا يسمَّى بالْفَلَق كلُّ شيء انفلق عن شيء آخر.

والفلق: المُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ، كَأَنَّ الأرض الجبلية الوعرة انْفَلَقَت فتباعدت أجزاؤها، فظهر المطمئن منها، والفليق والفالق: ما بين الجبلين، وما بين السنامين من ظَهْر البعير، وَجَمْعُهُ: فُلْقَانُ، مِثْلُ: خَلَقٍ وَخُلْقَانُ[2]، ويدخل في هذا المعنى: «الجبال والصخور تنفلق بِالْمِيَاهِ، أَيْ: تَتَشَقَّقُ. وَقِيلَ: هُوَ التَّفْلِيقُ بَيْنَ الْجِبَالِ وَالصُّخُورِ؛ لِأَنَّهَا تَتَشَقَّقُ مِنْ خَوْفِ اللهِ ﷻ»[3]، قَالَ زُهَيْرٌ:

مَا زِلْتُ أَرْمُقُهُمْ حَتَّى إِذَا هَبَطَتْ ... أَيْدِي الرِّكَابِ بِهِمْ مِنْ راكسٍ فَلَقَا[4]

(١) العين (٥/ ١٦٤)، مقاييس اللغة (٤/ ٤٥٢)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٨٥)، تاج العروس (٢٦/ ٣٠٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٧١٢).

(٢) ينظر: تاج العروس (٢٦/ ٣١١).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٥٤).

(٤) البيت في ديوانه (ص: ٧٣)، الرَّاكِسُ: بَطْنُ الْوَادِي.

بصيرة: تمدُّنا كلمة: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾، بمعنى جميل جدًّا في تغيُّرات الحياة، وتقلُّباتها، وتصوِّر القدرة الإلهيَّة المبدعة لتقسيم ما نظنُّ أنه يصعب تقسيمه، وذلك مثل الانشطار النووي الذي ينتج عنه حالة مذهلة من الطاقة المنبعثة منه.

والمفسِّرون رحمهم الله مثَّلوا لمعنى ﴿ٱلْفَلَقِ﴾، ولم يريدوا الحصر، فيدخل كلامهم في التفسير بضرب المثال، فمن المعاني التي ذكرها المفسرون للفلق، وأظهرت قوة هذه الكلمة ما يأتي:

١) كل ما يفلقه الله عَزَّ وَجَلَّ، كالأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأولاد [(١)].

٢) ما ينفلق عن الحَبِّ والنَّوى من الشجر والنبات، فانظر لذلك الحَبِّ الشديد التماسك، ولتلك النواة الصَّلبة الصَّلدة كيف ينفلق عنها ذلك النبات، وقولُه تَعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥] أي: شاقُّه بإخْراجِ الوَرَقِ الأخضَرِ منْه، والفالِقُ: الشَّاقِقُ[(٢)].

٣) الصبح المنفلق عن تباعد الظلام عن بعضه، فالظَّلَامَ يَنْفَلِقُ عَنْهُ، ويقال: الفَلَق والفَرَق، لأن الليل يفلق عنه ويفرق، فهو فَعَلٌ بمعنى مفعول. يقال في المثل: هو أبين من فلق الصبح، ومن فَرَق الصبح. ومنه قولهم: سطع الفرقان، إذا طلع الفجر[(٣)].

---

(١) الكشاف (٤/ ٨٢٠).

(٢) تاج العروس (٢٦/ ٣٠٨).

(٣) الكشاف (٤/ ٨٢٠).

وحقيقة الفلق: الانشقاق عن باطن شيء، وَمِنْه قولُ عائِشة ﵂: «أَظُنُّ أَنَّ البُكاءَ فالِقٌ كَبِدي»[(١)]، وكما في قوله: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

واستعير لظهور الصبح بعد ظلمة الليل، وهذا مثل استعارة الإخراج لظهور النور بعد الظلام في قوله تعالى: ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٩]، واستعارة السلخ له في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧][(٢)].

قال ابن زيد ﵀، في قول الله ﷿: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾ قيل له: فلق الصبح؟ قال: نعم، وقرأ: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ [الأنعام: ٩٦][(٣)]، وهو على تقدير مضاف محذوف أي: فالق ظُلمة الإصباح -كما يقول الزمخشري ﵀[(٤)]- أي: شاقّ، أي: باعد الظلام عن بعضه فنتج الصُّبْح.

يَا لَيْلَةً لَمْ أَنَمْهَا بِتُّ مُرْتَفِقًا   أَرْعَى النُّجُومَ إِلَى أَنْ نَوَّرَ الفَلَقُ[(٥)]

وابن عباس ﵄ يحلِّق بنا بعيدًا في تحليل معنى هذه الكلمة بدقَّة، فقد سأله نافع بن الأزرق قال: يا ابن عباس: أخبرني عن قول الله ﷿: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾.

قال: قل أعوذ بربِّ الصُّبح إذا انفلق من ظلمة الليل.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

---

(١) البخاري (٢٦٦١).

(٢) الكشاف (٤/ ٨٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٦).

(٤) الكشاف (٢/ ٤٩).

(٥) لم أقف على قائله. ينظر: تفسير الماوردي (٦/ ٣٧٤)، تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٥٤).

قال: نعم، أما سمعت زهير بن أبي سلمى وهو يقول:

الفارجُ الهمَّ مسدولٌ عَساكِرُهُ ... كَمَا يُفَرِّجُ غَمَّ الظُّلْمَةِ الْفَلَقُ[1]

ورأى البقاعي رحمه الله أن الفلق هو فلق الصبح «لأنه ظاهر في تغيُّر الحال ومحاكاة يوم القيامة، الذي هو أعظم فلقٍ يشقُّ ظلمةَ الفناء والهلاك بالبعث والإحياء، فإن القادر على ما قبله بما نشاهده قادر عليه، لأنه لا فرق، بل البعث أهون في عوائد الناس لأنه إعادة، كذا سائر الممكنات، ومن قَدَرَ على ذلك قَدَرَ على إعاذة المستعيذ من كلِّ ما يخافه ويخشاه»[2].

ورجَّح هذا القول بعض المفسرين معلِّلين ذلك بأنه الذي يشهد له القرآن، كما جاء النص الصريح في الصبح والحبِّ والنوى كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٥-٩٦]، وكلها آيات دالة على قدرة الله عز وجل، وجاء في حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي: وأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يرى رؤيا إلا جاءت كفَلَقِ الصُّبْح[3]، والفلق بمعنى الصبح معروف في كلام العرب[4].

٤) وَالْفَلَقُ: الْخَلْقُ كُلُّهُ، كما ذكر الطبري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما، فكلمة "فَلَق" على وزن (فَعَلٌ) بمعنى: مفعول، ومثل: سَلَب وقَنَص، بمعنى: مُسْتَلَب ومُقْتَنَص، فالحيوان المَنَوي والبويضة اتحدا ليكونا شيئًا واحدًا هو المشيج، ثم انفلق المشيج ليظهر الإنسان وكل مخلوق بعد انفطارات متتابعة، حَتَّى أُبْرِزَ وَأُظْهِرَ، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

---

(١) مسائل نافع بن الأزرق (ص: ٩٨)، والبيت لزهير بن أبي سلمى، وليس في ديوانه، وقد ورد بغير نسبة في بعض المراجع، وشطره بلفظ: (يا فارجَ الكَرْبِ مَسْدُولًا عَسَاكِرُهُ). ينظر: العين (٦/ ١٠٩)، أساس البلاغة (٢/ ١٣).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٠٨).

(٣) البخاري (٣).

(٤) ينظر: أضواء البيان (٩/ ١٥٩).

وَسْــوَسَ يَـدْعُو مُخْلِصًــا رَبَّ الْفَلَقْ سِـــرًّا وَقَـدْ أَوَّنَ تَـأْوِيـنَ الْـعُـقَـقْ(١)

ومن الفلق: الأنهار المذكورة في قوله ﷻ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ [النمل: ٦١].

وينظر ابن تيمية ﷺ إلى هذا المعنى القوي للفلق؛ فيقول: «والفلق: فَعَلٌ بمعنى مفعول كالقَبَض بمعنى المقبوض، فكلُّ ما فلقه الربُّ فهو فلق، قال الحسن ﷺ: الفلق كلُّ ما انفلق عن شيء: كالصبح والحَبِّ والنوى. قال الزجاج ﷺ: وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر»(٢).

وقال الملوي ﷺ: «والفَلْق - بالسكون والحركة- كلُّ شيء انشق عنه ظلمة العدم، وأوجد من الكائنات جميعها»(٣).

فاللهُ ﷻ فالقُ الإصباح عن الظلمات، وفالقُ النبات عن الحب والنوى، وفالق الأنهار عن الأرض اليبس، وفالق العيون عن الحجارة الصماء، وفالق المطر عن السَّحاب المجتمع، وفالق الحياة عن البيضة المتراكمة، وفالق الإنسان والحيوان عن الخلايا الملتصقة بالأرحام.

٥) والفلق العجب، كأنما انشق عن الحالة الجامدة المعتادة، ومن أجل ذلك سميت الْفُلَيْقَةُ وهِيَ الدَّاهِيَةُ الْعَظِيمَةُ، وقد جمع الطبري ﷺ بين هذه الأقوال كلها، وذلك لأنها تفاسير بضرب المثال، فقال: «وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ، أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ- أَمَرَ نَبِيَّهُ

---

(١) والبيت في ديوان رؤبة (ص: ١٠٨)، وينظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٥٥)، وقال المحققان (أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش): «وقوله: (أَوَّن) أي: أكل وشرب حتى امتلأ بطنه. والعُقُق: جمع عَقوق، كرسول ورُسُل، وهي التي تكامل حملها، وقرب ولادها. وصف صائدًا لما أحس بالصيد- وهي الأُتن التي وردت الماء فشربت حتى امتلأت خواصرها- وأراد رؤبة: وسوس نفسه بالدعاء حذر الخيبة.

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٤).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٠٨)

مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَقُولَ: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] وَالْفَلَقُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: فَلَقُ الصُّبْحِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: هُوَ أَبْيَنُ مِنْ فَلَقِ الصُّبْحِ، وَمِنْ فَرَقِ الصُّبْحِ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ فِي جَهَنَّمَ سِجْنٌ اسْمُهُ فَلَقٌ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ- وَضَعَ دَلَالَةً عَلَى أَنَّهُ عَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] بَعْضَ مَا يُدْعَى الْفَلَقُ دُونَ بَعْضٍ، وَكَانَ اللهُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- رَبَّ كُلِّ مَا خَلَقَ مِنْ شَيْءٍ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَعْنِيًّا بِهِ كُلُّ مَا اسْمُهُ الْفَلَقُ، إِذْ كَانَ رَبَّ جَمِيعِ ذَلِكَ»[(١)].

٦) والفلق واد في جهنم انفلقت عنه جهنم، فهو سجن سحيق بين مرتفعاتها المرعبة، حيث يجد المعذَّبون أبشع ما في جهنم من العذاب، وتفسيره بهذين المعنيين ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)]، وقَدِم رجل من أصحاب رسول الله ﷺ الشام، قال: فنظر إلى دُور أهل الذِّمَّة، وما هم فيه من العيش والنضارة، وما وُسِّع عليهم في دنياهم، قال: فقال: لا أبًا لك أليس من ورائهم الفلق؟ قال: قيل: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا فُتح هَرَّ أَهْلُ النار»[(٣)]، و«عن كعب رحمه الله، أنه دخل كنيسة فأعجبه حُسنُها، فقال: أحسنُ عملٍ وأضلُّ قومٍ، رضيت لكم الفلق، قيل: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا فُتح صاح جميع أهل النار من شدَّة حرِّه»[(٤)].

ولكنني لا أميل إلى هذا المعنى بسبب عدم وجود النص الصحيح الصريح المرفوع بأن هناك واديًا في جهنم يدعى الفلق، فلم يثبت فيه نصٌّ، وليست فيه أية مشاهدة يحال عليها

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٧٠٠).

(٢) تفسير الطبري طبعة: دار الحديث (١١/ ٧٧٧)، وضعف إسلام منصور الأثرين الواردين عن ابن عباس.

(٣) تفسير الطبري، طبعة: دار الحديث (١١/ ٧٧٧)، وقال إسلام منصور: "ضعيف؛ عبد الجبار الخولاني مجهول الحال".

(٤) تفسير الطبري، طبعة: دار الحديث (١١/ ٧٧٨)، وقال إسلام منصور: "ضعيف؛ أبو عبيد مولى سليمان بن عبد الملك مجهول".

للدلالة على قدرة الله تعالى كما في الأشياء الأخرى المشاهدة، وهذه الآثار ذاتها فيها ضعف، فلا أرى صحة هذا القول، وإنما أوردته لبيان أن هناك من ذهب إليه.

وقد رد ابن تيمية ﵀ على من قال بهذا القول، فقال: «وأما من قال: إنه واد في جهنم أو شجرة في جهنم أو أنه اسم من أسماء جهنم فهذا أمر لا تعرف صحته لا بدلالة الاسم عليه، ولا بنقل عن النبي ﷺ، ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمة، بخلاف ما إذا قال رب الخلق، أو رب كلِّ ما انفلق، أو رب النور الذي يظهره على العباد بالنهار فإن في تخصيص هذا بالذكر ما يظهر به عظمة الرَّبِّ المستعاذ به»(١).

والذي يظهر أن كلَّ الأقوال ما عدا القول بأنه جُبٌّ في جهنم من قبيل اختلاف التنوع، وأنها كلها محتملة.

فإن قلت: ما الحكمة من تخصيص وصف الله ﷻ بأنه رب الفلق؟

الجواب: تخصيص وصف الله ﷻ بأنه رب الفلق دون وصف آخر؛ لأن شرًّا كثيرًا يحدث في الليل من لصوص، وسباع، وذوات سموم، وتَعَذُّر السير، وعُسْر النجدة، وبُعْدِ الاستغاثة واشتداد آلام المرضى، حتى ظنَّ بعض أهل الضلالة الليل إله الشر.

والمعنى: أعوذ بفالق الصبح مَنجاةً من شرور الليل، فإنه قادر على أن ينجيني في الليل من الشَّرِّ، كما أنجى أهل الأرض كلَّهم بأنْ خَلَقَ لهم الصبح، فوصف الله ﷻ بالصفة التي فيها تمهيدٌ للإجابة(٢).

فالمستعاذ به هو اللهُ جل مجده، وتعالى جده، وتعاظم كَرَمَهُ ورِفْدُهُ رب الفلق، فهو الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا الاعتماد إلا عليه، ولا التفويض إلا إليه، ولا الركون إلا عليه،

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٦).

وكما أحدث قوّة الفلق العظيمة التي نشأت منها الحياة، فهو القادر على الحماية من تلك الشرور الأربعة الجسيمة التي سيذكرها الله ﷻ في السورة.

قد تسأل: ما الشرور الأربعة العظيمة التي يتوجب على الإنسان أن يستعيذ منها؟

الجواب: هي الشرور المذكورة بعد في الآيات التالية: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ٢-٥].

هنا ربما تسأل: فكيف تكون المناسبة بين الاستعاذة ﴿بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، وبين الشرور الأربعة العظيمة التي استعاذ الإنسان منها في هذه السورة المباركة؟

الجواب:

بما أن الله ﷻ علّمنا التَّعوُّذ من الشرور الأربعة ﴿بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، فهذا يعني أن هناك مناسبة عظيمة جدًّا بين التَّعوُّذ من هذه الشرور ووصف الله ﷻ في صيغة التَّعوُّذ بأنه رب الفلق ويشعرنا النبي ﷺ بقوَّة هذا التَّعوُّذ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بين الأبواء والجُحْفَة، إذا غشيتنا رياح وظلمة، فجعل رسول الله ﷺ يتعوَّذ بأعوذ برب الفلق، وأعوذ برب الناس، ويقول: «يا أبا هريرة، تَعَوَّذْ بهما، فما تَعَوَّذَ متعوِّذ بمثلهما»، ثم سمعته يؤمُّ بهما في الصلاة[1].

فإذا قلنا بأن الفلقَ فلقُ الصبح، فمناسبة الاستعاذة برب الفلق من تلك الشرور واضحة، ومنها:

الأول: نستعيذ برب الفلق الذي يعني الصبح، فيؤمِّن ربُّنا بالنور من شرٍّ كلَّ غامض مستور، ونستعيذ برب الخلق الذي يؤمِّن بحمايته وحفظه ولطفه ورفقه من شر خلقه.

(١) الطبراني في "الدعاء" (٩٧٩)، وحسّن إسناده الأرناؤوط في تخريج أحاديث سنن أبي داود (٢/ ٣٩٧).

الثاني: ندعو رب الفلق الْقَادِرِ عَلَى إِزَالَةِ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ الشَّدِيدَةِ عَنْ كُلِّ هَذَا الْعَالَمِ، فهو الذي يَقْدِرُ أَيْضًا أَنْ يَدْفَعَ عَنِ الْعَائِذِ كُلَّ مَا يَخَافُهُ وَيَخْشَاهُ.

الثَّالث: أَنَّ طُلُوعَ الصُّبْحِ كَالْمِثَالِ لِمَجِيءِ الْفَرَجِ، فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي اللَّيْلِ يَكُونُ مُنْتَظِرًا لِطُلُوعِ الصَّبَاحِ، كَذَلِكَ الْخَائِفُ يَكُونُ مُتَرَقِّبًا لِطُلُوعِ صَبَاحِ النَّجَاحِ، فالصُّبْح كَالْبُشْرَى التي يترقبها الإنسان طول ليله.

فتفسير الفلق بأنه كلُّ ما ينفلق من الشيء المُصْمَت رجَّحه الرازي ﵀ فقال عن الفلق:

«عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ مَا يَفْلِقُهُ اللهُ كَالْأَرْضِ عَنِ النَّبَاتِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، والجبال عن العيون: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٧٤]، وَالسَّحَابِ عَنِ الْأَمْطَارِ، وَالْأَرْحَامِ عَنِ الْأَوْلَادِ، وَالْبَيْضِ عَنِ الْفَرْخِ، وَالْقُلُوبِ عَنِ الْمَعَارِفِ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْخَلْقَ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ أَكْثَرَهُ عَنِ انْقِلَابٍ، بَلِ الْعَدَمُ كَأَنَّهُ ظُلْمَةٌ وَالنُّورُ كَأَنَّهُ الْوُجُودُ، وَثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ اللهُ ﷻ فِي الْأَزَلِ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ الْبَتَّةَ، فَكَأَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الَّذِي فَلَقَ بِحَارَ ظُلُمَاتِ الْعَدَمِ بِأَنْوَارِ الْإِيجَادِ وَالتَّكْوِينِ وَالْإِبْدَاعِ، فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْفَلَقِ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ أَقْرَبُ مِنْ وُجُوهٍ أَحَدُهَا: هُوَ أَنَّ الْمَوْجُودَ إِمَّا الْخَالِقُ وَإِمَّا الْخَلْقُ، فَإِذَا فَسَّرْنَا الْفَلَقَ بِهَذَا التَّفْسِيرِ صَارَ كَأَنَّهُ قَالَ: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ جَمِيعِ الْمُمْكِنَاتِ، وَمُكَوِّنِ كُلِّ الْمُحْدَثَاتِ وَالْمُبْدَعَاتِ فَيَكُونُ التَّعْظِيمُ فِيهِ أَعْظَمَ، وَيَكُونُ الصُّبْحُ أَحَدَ الْأُمُورِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى»(١).

وهنا يأتي سؤال تدبري يطرحه الرازي ﵀: «أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي مفتاح القراءة: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨]، **وقال هاهنا: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ**

---

(١) تفسير الرازي (٣٢/ ٣٧٢).

ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ٩٧]، وَجَاءَ فِي الْأَحَادِيثِ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ»(١)، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَفْضَلَ أَسْمَاءِ اللهِ هُوَ اللهُ، وَأَمَّا الرَّبُّ فَإِنَّهُ قَدْ يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ [يُوسُف: ٣٩]، فَمَا السَّبَبُ فِي أَنَّهُ تَعَالَى عِنْدَ الْأَمْرِ بِالتَّعَوُّذِ لَمْ يَقُلْ: (أَعُوذُ بِاللهِ)، بَلْ قَالَ: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾(٢)؟

الجواب: قُدِّم هنا الوصف بالرُّبوبيَّة لوجوه متعددة ذكرها الرازي ﵀، ولكننا سنذكر أوضحها:

وهو: أَنَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨]، فَأَمَرَهُ بِالِاسْتِعَاذَةِ هُنَاكَ لِأَجْلِ قِرَاءَةِ القرآن، وأمره بالاستعاذة هاهنا فِي هَذِهِ السُّورَةِ لِأَجْلِ حِفْظِ النَّفْسِ وَالْبَدَنِ عَنِ السِّحْرِ والشرور كلها وخاصة الغامضة والخفية، ففي قراءة القرآن ناسب الوصف بالاسم العلم الأعظم لأنه كلام الله ﷻ، وهنا ناسب اللجوء إلى الوصف بالربوبية؛ لأنه يكسب معنى الملك والسيادة والتربية، فكأن الإنسان يقول: التَّرْبِيَةُ وَالْإِحْسَانُ صفتك يا رب فَاحمني، وأَدِمْ تربيتك وإحسانك لي، وأنت الذي تقدر على فلق الأشياء الصلبة فافلق لي يا فالق الإصباح والحب والنوى القوى التي تحميني من هذه الشرور الكثيرة الغامضة، وأحتمي بك يا فالق القوى العظيمات في المخلوقات من كل هذه الآفات والمخافات.

ففي قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ١، ٢] من أدب الدعاء وبلاغته وتناسبِ جُمَلِه ما هو بيِّنٌ جليٌّ؛ إذ النص على اللهج بـ (رب الفلق) دون سواه يناسب مقام اللجأ والعياذ به سبحانه من الشرور السارية في ظلام الليل ودلجته، والتي ترتفع وتتوارى بانقشاع الظلام وحلول ضوء النهار بقدرة الله وحوله، وأنت عليم أن من أراد تدبير شرٍّ أو ضرٍّ

(١) مسلم (٢٧٠٨).

(٢) تفسير الرازي (٣٢/ ٣٧٠).

بأحد إنما يبيته ليلًا، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، ولذا جاءت الآية لوصل ضعف العبد بقوة ربِّه ومولاه ﷻ، وفقره بكرمه وغناه، كي يحفظه ويرعاه.

المحور الخامس

المستعاذ منه، وهي أربعة أخطار

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ... ﴾ [الفلق: 2-5]

الخطر الأول

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾

وهذا خطر عام يشمل كلَّ شرٍّ في الوجود

الخطر الثاني

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾

وهذا خطر وقت محدد تزداد فيه الشرور

الخطر الثالث

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤﴾

وهذا صنفٌ خاصٌّ غامض من الناس أقاموا حياتهم على فعل الشرور

الخطر الرابع

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

وهذا صنفٌ خاصٌّ من الشرور ينبعث شره من داخله المظلم

المحور الخامس

المستعاذ منه، وهي أربعة أخطار: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ٢-٥].

فأول خطرٍ نستعيذ منه ذكره الله ﷻ في هذه السورة هو شر الخلق، فماذا يعني ذلك؟

الجواب:

الخطر الأول: شرُّ الخلق ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ٢].

فهذه أربع كلمات:

الكلمة الأولى: ﴿مِن﴾ تصوِّرُ هذه الكلمة ابتداء الهدف الذي ينبغي أن نحذر منه، فنستعيذ بالله ﷻ من شره.

الكلمة الثانية: ﴿شَرِّ﴾:

وهي تدلُّ على الِانْتِشَارِ وَالتَّطَايُرِ بصورة مؤذية مِنْ ذَلِكَ الشَّرِّ، تطاير الشيء المؤذي المزعج المؤلم، وهو كلُّ شيء خِلَافَ الْخَيْرِ، كأنه جاء من الشَّرَارَة، وَالْجَمْعُ الشَّرَارُ، وَالشَّرَرُ: مَا تَطَايَرَ مِنَ النَّارِ، الْوَاحِدَةُ شَرَرَةٌ. قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢]. فالشررة مؤذية مؤلمة.

والشرُّ: السوء، وشَرَّ إنسانًا: عابَه، وعَيْنٌ شُرَّى: أي خبيثة تصيب حسدًا، و"شَرْشَرْ الشيءَ: قطَّعه، وكلُّ قطعة شِرْشرة -بالكسر"(١).

---

(١) مقاييس اللغة (٣/ ١٨٠)، المفردات في غريب القرآن (ص٤٤٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ١١١٧).

بصيرة: هذه الكلمة ﴿شَرّ﴾ تدلُّ على الشَّيء الضَّارِّ المتطاير الذي يؤذي ما حوله، فيدخل فيه السوء والمكروه والضُّر والعيب والخبث والفساد، وكلُّ ما يؤدِّي إلى اختلال الحياة، فتُصَوِّرُ هذه الكلمةُ كلَّ خطرٍ يهجم على الإنسان، أو مصيبة يمكن أن تحلَّ به.

وهنا نسأل: هل يمكننا أن نقف على أهمَّ صور الخطر التي نجدها في كلمة ﴿شَرِّ﴾ حتى نتصور مقدار النعمة عندما نستعيذ بالله ﷻ من خطر شر الخلق؟

الجواب: ذكر ابن القيم رحمه الله[1] أن الشَّرَّ له أصلان:

الأصل الأول: الألم.

الأصل الثاني: الأسباب التي تؤدي إلى الألم.

ويدخل في هذا الآلام (الشرور) الأخرية المتمثلة في عذاب النار وعذاب القبر، كما يدخل فيه المعاصي والآثام التي تستوجب العذابين أو أحدهما، كما يندرج كل مؤلم من عذابات ومصائب وآلام الدنيا، وكذا مسبباتها، من معاصٍ استوجبت العقوبات أو أسباب طبيعية أخرى، فالزنا لذة عاجلة لكنها تؤدِّي إلى الألم الشديد في الدنيا والآخرة، والكفرُ يلتذ فيه الإنسان بإظهار نفسه إلهًا يأمر وينهى معرضًا عن ربه ﷻ كما فعل إبليس لكن هذه اللَّذة مصيرها إلى الألم الشديد الخفي في الدنيا، والجلي الظاهر في الآخرة.

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧١١)، والأصل كلامه، ولكنني فصلته تفصيلًا يناسب الزمان.

والشِّركُ يلتذ كُهَّانُهُ بالأكاذيب التي يوزعونها على أتباعهم؛ إذ به يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدُّون عن سبيل الله ﷻ، ويلتذون بما يجنونه من مكاسب نشر الشرك في الأرض، فصورته منفعة محضة، ومصلحة خالصة، وحقيقته أنه أسوأ الشرور.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «تفكرت في سبب دخول جهنم؛ فإذا هو المعاصي، فنظرت في المعاصي، فإذا هي حاصلة من طلب اللذات، فنظرت في اللذات، فرأيتها خُدَعًا ليست بشيء، وفي ضمنها من الأكدار ما يصيرها نُغَصًا، فتخرج عن كونها لذات، فكيف يتبع العاقل نفسه، ويرضى بجهنم، لأجل هذه الأكدار؟!»(١).

وهكذا أنواع المعاصي والظلم شرور ضخمة، تسبب في النهاية الآلام المدمِّرة، وما يظهر فيها من اللَّذَّة والمنفعة فهو كما يظهر من المُخَدِّرات التي يتناولها صاحبها فَرِحًا منتشيًا ثم ما يلبث أن يصل إلى ما يعرفه الجميع.

وكلُّ استعاذات النبي ﷺ مدارها على الاستعاذة من هذين الأصلين: من الألم، أو من السبب الذي يؤدِّي إليه، فكان ﷺ يتعوَّذُ في آخر الصلاة من أربع، وأَمَر بالاستعاذة منهن، وهي: "عذاب القبر"، و"عذاب النار"، فهذان أعظم المؤلمات، و"فتنة المحيا والممات"، و"فتنة المسيح الدجال"(٢)، وهذان سبب العذاب المؤلم، فالفتنةُ سبب العذاب، وذَكَر الفتنةَ خصوصًا وعمومًا، وذكر نَوْعَيِ الفتنة، فإن الفتنة إمَّا في الحياة وإمَّا بعد الموت، ففتنةُ الحياة قد يَتَراخى عنها العذاب مدَّة، وأما فتنة الموت فَيَتَّصلُ بها العذابُ من غير تراخٍ، وهذا من آكَدِ أدعية الصلاة حتى أوجب بعضُ السَّلف والخَلَف الإعادةَ على من لم يَدْعُ به في التَّشَهُّد

---

(١) صيد الخاطر (٤٣٩).

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ». البخاري (١٣٧٧).

الأخير، وأوجبه ابنُ حزم رحمه الله في كل تشهد فإن لم يأتِ به بَطَلَتْ صَلَاتُهُ[1]... ومن ذلك قوله: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ»[2]، فالسخط سبب الألمِ، والعقوبة هي الألم، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها [3].

بصيرة: الاستعاذة بالله ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ يدخل فيها الآلامُ الموجعة المؤذية في الدنيا والآخرة، وأسبابُ هذه الآلامِ وأصولُها.

بقي لنا في تدبرنا لهذه الآية كلمتان: ﴿مَا خَلَقَ﴾، فما المعنى الذي تظهرانه؟

الجواب:

الكلمة الثالثة: ﴿مَا﴾: وهي إمَّا أن تكون مصدرية والتقدير: من شر خَلْقِه، أي من شرٍ في خلقه، وإما أن تكون موصولة والتقدير: من شر الذي خلق[4]، أي من شر المخلوق الذي خلقه الله عز وجل، فالمخلوق قد يصدر عنه شر بإرادته أو بغير إرادته.

قال البقاعي رحمه الله مبينًا حدود هذا الشر الموجود في الخلق: «ولما كانت الأشياء قسمين: عالم الخلق، وعالم الأمر، وكان عالم الأمر خيرًا كُلَّه، فكان الشر منحصرًا في عالم الخلق خاصَّة بالاستعاذة فقال تعالى معمِّمًا فيها: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، أي: من كلِّ شيء سوى الله تعالى عز وجل وصفاته، والشر تارة يكون اختياريًّا من العاقل الداخل تحت مدلول «ما» وغيره

(١) ينظر: المحلى (٢/ ٣٠١).

(٢) مسلم (٤٨٦)

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٧١٣).

(٤) ينظر: الدر المصون (١١/ ١٥٨).

من سائر الحيوان كالكفر والظلم ونهش السباع ولدغ ذوات السموم، وتارة طبيعيًّا كإحراق النار وإهلاك السموم»[1].

«والشَّرُّ مسندٌ في الآية إلى المخلوق المفعول، لا إلى خَلْق الرَّبِّ تعالى الذي هو فعلُه وتكوينُه، فإنه لا شرَّ فيه بوجهٍ ما، فإن الشَّرَّ لا يدخل في شيءٍ من صفاته ولا في أفعاله، كما لا يلحقُ ذاتَهُ تبارك وتعالى، فإن ذاتَهُ لها الكمالُ المطلقُ الذي لا نقصَ فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك لها الكمالُ المطلَقُ والجلالُ التَّامُّ، ولا عيبَ فيها ولا نقصَ بوجهٍ ما، وكذلك أفعالُه كلُّها خيراتٌ محضة لا شرَّ فيها أصلًا»[2].

هنا تأتي الإجابة العظيمة على السؤال الكبير: لماذا خلق الله ﷻ الشر؟ هذا السؤال يردِّده الملحدون ليصلوا بذلك إلى نتيجة مفادها: الشر موجود فإنْ كان الله ﷻ خلقه فلا يستحق العبادة، وإن كان لم يخلقه، فهذا يدلُّ على أن الله ﷻ لا يحكم الكون، ولا يملكه، ولا يدبِّره، ولا يديره، فلا يستحقُّ العبادة أيضًا، وهكذا يضلِّل الملحدون غيرَهم، وربما تردَّد بعض المسلمين بسبب ذلك، ووقعوا في حيرة من الجواب، ولذا انقسمت الفِرَق الإسلامية في النظر إلى موضوع الشر.

هذا الإشكال من أكثر الإشكالات حضورًا في الخطاب الإلحادي، وهو مبني على عدد من التصورات الخاطئة، منها:

أولًا: التصور الخاطئ للصفات الإلهية والكمال الإلهي، وذلك من خلال حصر صفات الله ﷻ في صفة الرحمة والحب والعفو ونحوها، والنظر لها منفصلة عن بقية صفات الكمال، فكما أن الله ﷻ يتصف بالرحمة فهو يتصف بالحكمة، ونحو ذلك، وكل صفة من هذه

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٠٨).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٧١٨).

الصفات تقتضي وجود أحكامها وآثارها، وإلا تعطَّلت هذه الصفات، فإذا كانت صفة الرحمة تقتضي زوال الشر، فصفة الحكمة تقتضي وقوعه أحيانًا[1].

ثانيًا: التصور الخاطئ لطبيعة الوجود، "فالمعترض على الوجود الإلهي بقضية الشر هو في الحقيقة لا يعترض على موطن الشر فقط، وإنما يعترض على طبيعة الخلق كله، ويعترض على المسار العام لكل الوجود، ويعترض على قوانين الحياة جميعها، فإنه لو لم يخلق الله ﷻ الكون بهذه الصورة التي هو عليها لكان خلقًا آخر مختلفًا في طبيعته وقوانينه ومساره"[2].

ويضرب ابن القيم رحمه الله مثلًا لتوضيح التلازم بين طبيعة الوجود ووقوع الشر بـ" دولاب أو طاحون شديد الدوران، أي شيء خطفه ألقاه تحته وأفسده، وعنده قيِّمُه الذي يُديره وقد أحكم أمره ليُنتفع به ولا يضر أحدًا، فربما جاء الغِرُّ الذي لا يَعرف فيتقرَّب منه، فيخرق ثوبه أو بدنه أو يؤذيه، فإذا قيل لصاحبه لِمَ لَمْ تجعله ساكنًا لا يؤذي مَنِ اقترب منه؟ قال: هذه الصفة اللازمة التي كان بها دولابًا وطاحونًا، ولو جُعل على غير هذه الصفة لم تحصل به الحكمة المطلوبة منه ... "[3].

ثالثًا: أن العالم مليءٌ بالشواهد الدالة على الحكمة والرحمة، فلا يصح أن تُغفل كل هذه الشواهد لخفاء الحكمة في بعض صور الشر، يقول ابن تيمية رحمه الله: "وعدم علمنا بالحكمة في بعض الجزئيات لا يقدح فيما علمناه من أصل حكمته، فلا نكذِّب بما علمناه من حكمته ما لم نعلمه من تفصيلها، ونحن نعلم أن مَنْ عَلِمَ حذق أهل الحساب والطب والنحو ولم

---

(١) ينظر: مشكلة الشر ووجود الله، سامي عامري (ص٨٦، ١٠٧، ١١٦)، وظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، سلطان العميري (٢/ ٦١).

(٢) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢/ ٦٧).

(٣) طريق الهجرتين (١/ ٢٢٤).

يكن متصفًا بصفاتهم التي استحقوا بها أن يكونوا من أهل الحساب والطب والنحو، لم يمكنه أن يقدح فيما قالوه لعدم علمه بتوجيهه، والعباد أبعد عن معرفة الله وحكمته في خلقه من معرفة عوامهم بالحساب والطب والنحو، فاعتراضهم على حكمته أعظم جهلًا وتكلفًا للقول بلا علم من العامي المحض إذا قدح في الحساب والطب والنحو بغير علم بشيء من ذلك"[١].

رابعًا: المعترض على وجود الله ﷻ بوجود الشر انطلق من أن الأصل في هذه الحياة الدنيا أنها دار نعيم مطلق، وهذا التصور غير صحيح، فليست الغاية من هذه الحياة الدنيا إسعاد الإنسان ودفع كل ألم وشر عنه، وإنما ابتلاء الإنسان وامتحانه، والنعيم والخير المطلق إنما في دار أخرى متصلة بها يتحقق فيها الجزاء[٢].

خامسًا: أن من لوازم كون هذه الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان أن يكون الإنسان فاعلًا ذا قدرة وإرادة، ليترتب الحساب والجزاء على إرادته واختياره، وكون الإنسان فاعلًا مختارًا يستلزم وجود الخير والشر، إذ لو لم يكن هناك شر يقع بإرادة الإنسان واختياره لما صح الابتلاء، فلا معنى لامتحان أفعال الناس واختياراتهم ومحاسبتهم عليها إذا كانت الخيارات المتاحة لهم متساوية وكلها خير.

فكثير من الشرور إذن سببها حرية الإرادة الموهوبة للإنسان، وضرر هذه الشرور قد يكون قاصرًا وقد يكون متعديًا، وحينئذ فلا بد من وجود من يقع عليه الشر من الأبرياء[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ١٢٨).

(٢) ينظر: مشكلة الشر ووجود الله (ص: ٧٤، ٩١، ١٧٨)، وظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢/ ٧١).

(٣) ينظر: مشكلة الشر ووجود الله (ص: ١٠٢، ١١٣)، وظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢/ ٧٨).

سادسًا: يذكر المحقق ابن القيم ﷺ وفق طريقته الفذة في فك المعضلات وحل المشكلات أن: " المراد نوعان: مراد لنفسه. ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير، فهو مراد إرادةَ الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره: قد لا يكون في نفسه مقصودًا للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة مقصودة ومرادة. فهو مكروهٌ له من حيث نفسه وذاته، مرادٌ له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده"(١)، ثم يسوق وجوهًا أخرى في سياق الجواب، ننقل بعضها بنوع تصرف:

١) أن هذا كالدواء المتناهي في الكراهة، إذا علم متناوله أن فيه شفاءه... العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، وطويت عنه مغبته، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب؟! فهو ﷻ يكره الشيء ويبغضه في ذاته، ولا ينافي ذلك إرادته لغيره، وكونه سببًا إلى ما هو أحب إليه من فوته.

مثال ذلك: أنه ﷻ خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال، والاعتقادات والإرادات، وهو سبب شقاوة العبيد، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة، فهو مبغوض للرب ﷻ، مسخوط له، لعنه الله ومقته وغضب عليه، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، وجودها أحب إليه من عدمها.

٢) أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات فخلق هذه الذات (الشيطان) -التي هي أخبث الذوات وشرها وهي سبب كل شر- في مقابلة ذات جبريل ﷺ،

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٥١٠).

التي هي أشرف الذوات، وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، فتبارك الله خالق هذا وهذا.
كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام، والداء والدواء، والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبيح، والأرض والسماء، والذكر والأنثى، والماء والنار، والخير والشر.

٣) ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، وشديد العقاب، وسريع الحساب، والخافض، والمذل. فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، فلا بد من وجود متعلقها، ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملك لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

٤) ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه، ومغفرته وستره، وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده. فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله. فيغفر لهم»[1].

٥) ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه سبحانه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله غير منزله التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثواب موضع العقاب، ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع، ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل، ولا الذل مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه، ولا ينهى عما ينبغي الأمر به.

---

(١) مسلم (٢٧٤٩).

فلو قدر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار، ولم تظهر لخلقه، ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها، وفواتها شر من حصول تلك الأسباب.

فلو عطلت تلك الأسباب – لما فيها من الشر – لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر، فلو قدر تعطيلها –لئلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي– لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه.

٦) ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، ولكان الحاصل بعضها، لا كلها.

فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها: من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر، ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس(١).

معهود القرآن نسبة الشر إلى المخلوق لا إلى الخالق:

نجلي هذه الحقيقة في النقاط الآتية:

١) تبين الآية بوضوح شديد أن الشَّرَّ لا ينسب إلى الخالق بل إلى مخلوقاته، فيقول ربُّنا ﷻ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، ولم يقل: من شره أو شر فعله، فالشر ليس إليه جلَّ مجدُه.

٢) كلمة ﴿شَرِّ﴾ مضافة، أضيفت إلى قوله: ﴿مَا خَلَقَ﴾ أي: من شر الذي خلقه، فيكون المعنى: من شر المخلوق الذي خلقه ربُّ الفلق، فلم يقل: من شر المخلوق فحسب؛ لئلا

---

(١) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ٥١٠-٥١٥).

يُتَوهَّمَ أن ذلك المخلوق الشرير أو الذي فيه شر قد خلقه خالق آخر كما يزعم الذين يعبدون إلهين: إله الظلمة وإله النور، وإله الخير وإله الشر.

٣) تقدير الإضافة -عند علمائنا النحاة- على حذف الحرف (في) أو (من)، أي: من شرٍّ في خلقه أو من شرٍّ صادرٍ من خلقه، والمراد من شرٍ في المخلوق الذي خلقه الله ﷻ.

٤) يشمل شرَّ كلِّ المخلوقات؛ فإن كلَّ مخلوقٍ يحتمل أن يصيب غيرَه بِشَرٍّ ما، فالشَّرُّ إن وجد فلن يكون إلا من مخلوق من المخلوقات، أما الله الخالق ﷻ، فالشَّرُّ ليس إليه، ولا يصدر منه سبحانه وتعالى، لكنه لا يخرج عن حُكْمِه أو مُلْكِه، فهو الذي خلق المخلوق الذي قد يصدر منه الشَّرُّ، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: ٩٦].

٥) يدخل في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢﴾: أن يستعيذ الإنسان من كلِّ شرٍّ في الإنسان أو في الجانِّ أو في الحيوان أو في غيرها من المخلوقات، كالريح والتراب والزَّلازل والصواعق والأمراض والنيران، ويدخل فيه الشرور الناتجة عن غيرها مثل الهموم والأحزان.

٦) كلمة ﴿مَا﴾ فيها عمومٌ تقييديٌّ وصفيٌّ، لا عمومٌ إطلاقيٌّ، والمعنى: من شرِّ كلِّ مخلوقٍ فيه شرٌّ، أو ينتج عنه شرٌّ، وليس المرادُ الاستعاذة من شرِّ كلِّ ما خلقه الله تعالى، فإن الجنةَ وما فيها ليس فيها شرٌّ، وكذلك الملائكةُ والأنبياءُ فإنهم خيرٌ محضٌ، والخير كلُّه حصل على أيديهم، فالاستعاذة من ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢﴾ تعمُّ شرَّ كلِّ مخلوق فيه شرٌّ، وكلَّ شرٍّ في الدنيا والآخرة، وشرَّ شياطين الإنس والجن وشرَّ السِّباع والهوامِّ، وشرَّ النار والهواء، وغيرَ ذلك(١).

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٧٢٦).

أنواع الشَّرِّ الذي يصدر من المخلوق

النوع الأول

شرُّ الإنسان الذي يصدر عن نفسه، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّنْهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنْهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]

النوع الثاني

الشر المقصود الذي يصدر من الخلق المكلف ذي الإرادة والاختيار، كالظلم والبغي وغير ذلك

النوع الثالث

الشر غير المقصود الذي يصدر من الخلق المكلف ذي الإرادة والاختيار، مثل: أن يضرب الصاحب صاحبه دون تعمد

النوع الرابع

المخلوقات التي توجّه الشرور إلينا؛ لأن ذلك جزءٌ من طبيعتها، مثل: اللدغ والعض الحاصل من السباع والحشرات وغيرها

النوع الخامس

الخلق المسخَّر الذي سَلَبَ الله عز وجل منه الإرادة والاختيار، كالإحراق في النار

النوع السادس

الخلق الذي سخَّره الله عز وجل للتربية والتأديب، مثل: الأمراض والفقر والشدة

وهنا نسأل: فما الشَّرُّ الذي يمكن أن يصدر من المخلوق؟

الجواب: هذه استعاذة عامٌّة من كلِّ الشرور التي يمكن تصورها في الدنيا، فيدخل فيها الأنواع الآتية:

النوع الأول: شرُّ الإنسان الذي يصدر عن نفسه، فإن الله ﷻ أَلْهَمَ نفسَ كلِّ إنسان فجورها وتقواها، فقال -تعالى مجده-: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]، فأول إصلاح العالم أن يعترف المخلوق بالشر الذي فيه؛ لأجل أن يتركه ويجتنبه ويتقيه، وتقف مشدوهًا معجبًا بالعظمة النَّبويَّة التي أصلحت العالم؛ إذ يعلِّمنا النبي ﷺ أن نعترف بما عندنا، وأن نستعيذ الله ﷻ من أي شر يمكن أن يصدر عنا، فيقول: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللهُ، فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِل، فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»(١)، وعن عمران بن حصين، عن أبيه رضي الله عنهما، أنه أتى النبي ﷺ قبل أن يسلم، فلما أراد أن ينصرف، قال: ما أقول؟ قال: «قل: اللهم قني شر نفسي، واعزم لي على أرشد أمري»(٢).

فأول ما ينبغي أن يحترس منه الإنسان الشر الذي ربما دعته إليه نفسه، وأن يلهج إلى الله ﷻ مستعيذًا به من شرها وتغريرها:

رَبِّ اكْفِنِي شَرَّ نَفْسِي واللَّعِيْنَ وَهَبْ ... لِيْ تَوْبَةً واهْدِنِي قَبْلَ انْقَضَا أَجَلِي
زَادَتْ عُيُوبِيْ فَآمِنْ رَوْعَتِي وأَقِلْ ... يَا رَبَّنَا عَثْرَتِي وانْظُر بِلُطْفِكَ لِي(٣)

---

(١) أحمد (٢٧٤٩)، الترمذي (١١٠٥)، وقال: حديث حسن، وقال ابن رجب في "فتح الباري" (٨/ ٢٦٥): «حسن الترمذي هذا الحديث، وصححه جماعة، منهم: ابن خراش وغيره».

(٢) أحمد (١٩٩٩٢)، وصححه الحاكم في المستدرك (١٨٨٠)، وصحح إسناده ابن حجر في الإصابة (٢/ ٧٦).

(٣) مجموع القصائد الزهديات، عبد العزيز السلمان، (١/ ٥١٦).

النوع الثاني: الشر المقصود الذي يصدر من الخلق المكلف ذي الإرادة والاختيار كالإنسان والجان، فمن شرورهم التي تخرج بقصد وإرادة: المعاصي والمآثم، ومضارَّة بعضهم بعضًا من ظلمٍ وبغيٍ وقتلٍ وضربٍ وغيبة وغير ذلك، ومثل: التخطيط المدمر الذي يحاوله المجرمون ضد الصالحين؛ لإشاعة الفاحشة ونهب الثروات، وانظر كيف صرَّح الفاحشيون هذه الأيام بالرغبة في استهداف أطفال العالم خصوصًا أطفال الأُسَر التي ترى الفاحشة فاحشة تصدر عن مرضى يحتاجون إلى العلاج، ويدخل في هذه الشرور أيضًا: اغتصاب الأراضي، وتدمير الدول والشعوب للاستحواذ على خيراتها.

النوع الثالث: الشر غير المقصود الذي يصدر من الخلق المكلف ذي الإرادة والاختيار كالإنسان والجان، فمن أمثلة ما يصدر عنهم مما لا يقصدونه أن يضرب الصاحب صاحبه دون تعمد، أو يؤذي الوالد ولده من غير إرادة لذلك، وكأن يصدم السائق بسيارته غيرَه دون قصد منه، وكل ما يصدر عن المخلوقات من سوءٍ غير مقصود.

تَصَوَّرْ أن هذه الآية يدخل فيها كل هذه الأنواع من الشرور! وتَصَوَّرْ عظمة الذي يستعاذ منه كل ذلك!

النوع الرابع: المخلوقات التي توجِّه الشرور إلينا؛ لأن ذلك جزءٌ من طبيعتها وحياتها، مثل: افتراس السبع والنهس واللدغ والعض الحاصل من السباع والحشرات وغيرها.

النوع الخامس: الخلق المسخَّر الذي سَلَب الله ﷻ منه الإرادة والاختيار، فيصدر عنه ما يمكن أن يكون شرًّا، كالذي وضعه الله ﷻ في المواد من أنواع الضرر كالإحراق في النار، والقتل في السم[1]، ومثل ما ينتج عن الزلازل والريح والأعاصير من التدمير.

---

(١) الكشاف (٤/ ٨٢٠).

النوع السادس: الخلق الذي سخَّره الله ﷻ للتربية والتأديب، مثل: الأمراض والفقر والشدة، فإنها تسمى شرورًا بالنظر إلى رغبة الإنسان وحاله، وقد سماها الله ﷻ شرًّا بالنظر إلى ذلك؛ إذ قال ﷻ: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [الْمَعَارِج: ٢٠]، وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥١]، فهذا كما يقول ابن القيم ؒ: «من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه»(١).

هنا يظهر لنا جمال هذا العموم في هذه الاستعاذة المباركة ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، ويحدثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَنْبَشٍ ؓ أن النبي ﷺ علَّمه جبريل ؑ أن يقول: "أعُوذُ بكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ الَّتِي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ ولا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ وذَرَأَ وبَرَأَ، وَمنْ شَرِّ ما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ وَمِنْ شرِّ مَا يَعْرُجُ فيها، ومنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ في الأَرْضِ وَمِنْ شرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْها، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ، وَمنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طارقًا يَطْرُق بخيرٍ يا رَحْمنُ»(٢).

وقد ورد عن كَعْبَ الأَحْبَارِ ؒ قَالَ: لَوْلَا كَلِمَاتٌ أَقُولُهُنَّ، لَجَعَلَتْنِي يَهُودُ حِمَارًا، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا هُنَّ؟ فَقَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِ اللهِ الْعَظِيمِ، الَّذِي لَيْسَ شَيْءٌ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَبِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، وَبِأَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى كُلِّهَا، مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ»(٣).

---

(١) مدارج السالكين، (٢/ ٥١٧).

(٢) أحمد (١٥٤٦١)، وجوَّد إسنادَه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٢/ ٨٤٥)، وفي مجمع الزوائد (١٠ / ٨٦): "ورجال أحد إسنادي أحمد وأبي يعلى وبعض أسانيد الطبراني رجال الصحيح، وكذلك رجال الطبراني".

(٣) موطأ مالك رواية أبي مصعب الزهري (٢/ ١٣٠)، قال الألباني في "هداية الرواة - مع تخريج المشكاة الثاني" (٣/ ٢٦): "إسناده صحيح؛ لكنه مقطوع".

قال الطيبي ﷺ «قوله: ((حمارًا)) لعله أراد أن اليهود سحرته، ولولا استعاذتي بهذه الكلمات لتمكنوا من أن يقلبوا حقيقتي لبغضهم إياي حيث إني أسلمت، أو لتمكَّنوا من إذلالي وتوهيني كالحمار، فإنه مثل في الذلة»[1].

وهنا نعلم مقدار العظمة النبوية حين علَّمنا النبي ﷺ أن نستعيذ بالله ﷻ بهذه السورة لنأمن من كل الشرور.

كما علَّمنا النبي ﷺ أن نستعيذ بالله من بعض الشرور التفصيلية، كقوله ﷺ: «إِذَا تَزَوَّجَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً أَوِ اشْتَرَى خَادِمًا، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ، وَإِذَا اشْتَرَى بَعِيرًا فَلْيَأْخُذْ بِذِرْوَةِ سَنَامِهِ وَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: زَادَ أَبُو سَعِيدٍ: «ثُمَّ لِيَأْخُذْ بِنَاصِيَتِهَا وَلْيَدْعُ بِالْبَرَكَةِ فِي الْمَرْأَةِ وَالْخَادِمِ»[2].

وقال ﷺ: «إِذَا أَفَادَ أَحَدُكُمُ الْمَرْأَةَ أَوِ الْجَارِيَةَ أَوِ الدَّابَّةَ أَوِ الْغُلَامِ، فَلْيَقُلْ: أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهَا وَخَيْرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ»[3].

وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا سَمَّاهُ بِاسْمِهِ، قَمِيصٌ أَوْ عِمَامَةٌ أَوْ رِدَاءٌ، ثم يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنع لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صنع له»[4]، وعَنْ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ

---

(١) «شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٦/ ١٩٢٢).

(٢) أبو داود (٢١٦٠)، وصحح إسناده النووي في الأذكار (ص: ٢٨٤)، وحسنه الأرناؤوط، والألباني في "هداية الرواة – مع تخريج المشكاة الثاني" (٣/ ١٤).

(٣) خلق أفعال العباد للبخاري (٢/ ٦١٦)، وابن ماجه (١٩١٨)، وحسَّنه الأرناؤوط، وكذا الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٦٠).

(٤) أحمد (١١٢٤٨)، وقال محققو المسند: "حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف"، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٤٦٦٤).

قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ»، قَالَتْ: وَإِذَا تَخَيَّلَتِ السَّمَاءُ، تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ! كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ﴾ [الأحقاف: ٢٤]»(١).

إن هذه التعوذات النبوية تؤكد كم هي حاجة العبد لمولاه ورعايته والاحتماء بجواره، وإذا كان النبي المجتبى ﷺ الذي قال الله عز وجل له: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] لا ينفك عن اللهج بالاستعاذة بالله عز وجل في إقامته وسفره، وفي ليله ونهاره، وفي صحوه ويقظته فكيف بسواه من الخلق. ألا ما أجهل الخلق بمدى حاجتهم لربهم وحفظه إياهم من الشرور!

بصيرة: دلالة العموم في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢﴾ [الفلق: ١، ٢] تبصرنا بحاجة العبد لكفاية الله عز وجل إياه، وحفظه ورعايته من جميع الشرور الظاهرة والخفية المعلومة له والمجهولة.

والآن فعد مجددًا وانظر لعظمة الحبِّ الإلهي لك:

يأمرك بأن تستعيذ به جلَّ مجدُه، وعندما تستعيذ به ينبغي أن تتمسك بصفة عظيمة من صفاته هي: ﴿رَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾.

إنك تستعيذ برب القوة العظيمة التي بها ينفلق الجاف الصلد المصمت عن حياة تملأ العين رواءً وبهاءً، وبها ينفلق غسق الظلام عن نور يشع في الكون سناءً وضياءً، وبها تنفلق الخلية الأولى عن إنسان عجيب الصنعة يكون بشرًا سويًّا، وبها تنفلق الأرض لتزهر غرسًا نديًّا وثمرًا

(١) مسلم (٨٩٩).

جنيًّا، والأمر حقيقي ومدهش جدًا، فالفَلْقُ لمخلوقات محددة لا يمكن أن يكون إلا بقوةٍ هائلة، وينتج عنه انفلاقٌ، والانفلاق قوةٌ هائلة أخرى، ومن ذلك مثلًا التفجير الذري، فهو قوةٌ ضخمة جدًّا لا تكاد تُتَصور، وينتج عنه قوة ضخمة أخرى، ومن ذلك انفلاق الخلية الواحدة (المشيج) لتكون إنسانًا، فانفلاقها يحتاج إلى قوة خاصَّة جدًّا لتكون تريليونات الخلايا.

وتصور! تستعيذ برب الصبح الذي يُؤَمِّن بالنور من شر كلِّ غامض مستور، أو تستعيذ برب الخلق الذي أنشأهم أول مرة من كلِّ شرٍّ يمكن أن ينبعث منهم في كلِّ لحظة أو كَرَّة.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ أي: من شر خلقه إطلاقًا وإجمالًا، وللخلائق شرور في حالات اتصال بعضها ببعض.

كما أن لها خيرًا ونفعًا في حالات أخرى، والاستعاذة بالله ﷻ هنا من شرها ليبقى خيرها. والله الذي خلقها قادر على توجيهها وتدبيرها.

بصيرة: عندما تستعيذ بالله ﴿رَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، فأنت تستعيذ برب القوة العظيمة التي تنفلق عن كل شيء، ليخرج منه قوة هائلة وطاقة عظيمة كالصبح، ومادة ضخمة كالخلق الذي يخرج من فلق الخلية الأولى.

أمهات مطالب السَّائلين في دعاء عباده الصالحين

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ ...﴾ [آل عمران: 193-194]

- **المستعاذُ منه نوعان**
  - **أحدهُما**: موجود يُطلب رفعه
    - ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: 193].
  - **الثاني**: معدومٌ يطلبُ بقاؤه على العدم وأن لا يوجد
    - ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران: 193].
- **الخير المطلق نوعان**
  - **أحدهُما**: موجودٌ فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه
    - ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: 194].
  - **الثاني**: معدومٌ فيطلب وجوده وحصوله
    - ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: 194].

هنا يثور عندنا سؤال جديد: عندما نستعيذ بالله ﷻ فنقول: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، ما الشر الذي يأمرنا الله ﷻ أن نستعيذ به منها من حيث وجوده وعدمه؟

الجواب: يفصِّل ابن القيم ﷺ ذلك تفصيلًا عظيمًا بهيًّا في تأمُّلٍ قيِّمٍ بديع[1]، فيذكر أن الشرَّ المستعاذَ منه نوعان:

أحدهُما: موجود يُطلب رفعه.

والثاني: معدومٌ يطلبُ بقاؤه على العدم وأن لا يوجد.

كما أن الخير المطلق نوعان:

أحدهما: موجودٌ فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه.

والثاني: معدومٌ فيطلب وجوده وحصوله.

فهذه أربعةٌ هي أمهات مطالب السَّائلين من ربِّ العالمَين، وجاءت هذه المطالبُ الأربعةُ في قوله تعالى حكايةً عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فهذا الطلب لدفع الشر الموجود، فإن الذنوب والسيئات شر.

ثم قال: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ١٩٣﴾، فهذا طلبٌ لدوام الخير الموجود وهو الإيمان، حتى يتوفاهم عليه، فهذانِ قسمان.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إيَّاه.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧١٥).

ثم قال: ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، فهذا طلبٌ أن لا يقعَ بهم الشَّرُّ المعدومُ، وهو خزيُ يوم القيامة، فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسنَ انتظام، مرتبةً أحسن ترتيبٍ، قُدِّمَ فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما المغفرة، ودوامُ الإسلام إلى الموت، ثم أُتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة وهما: أن يُعطوا ما وُعِدُوه على ألسنة رسله، وأن لا يُخْزِيَهُم يوم القيامة.

إذا عُرِف هذا؛ فقوله ﷺ في تشهُّد الخطبة: «وَنَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنا، ومِنْ سيئاتِ أَعْمَالِنَا»، يتناوَلُ الاستعاذةَ من شرِّ النفس الذي هو معدومٌ لكنه فيها بالقوَّة، فيسأل دفعه وأن لا يوجد.

وأما قوله: «مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنا»؛ ففيه قولان:

أحدهما: أنه استعاذةٌ من الأعمال السيئة التي قد وُجِدتْ، فيكون الحديثُ قد تناولَ نوعَي الاستعاذة من الشَّرِّ المعدوم الذي لم يوجدْ، ومن الشر الموجود، فطلب دَفْع الأول ورَفْع الثاني.

والآخر: أن سيئاتِ الأعمال هي: عقوباتُها وموجباتُها السيئة التي تسوءُ صاحبَها، وعلى هذا يكونُ مِن استعاذةِ الدفع أيضًا، لكنه دفعُ المسبب، والأول دفع السبب، فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه.

وسببُ الشر إما من ذات العبد، وإما من خارج، ومورده ومنتهاه، إما نفسه وإما غيره، فهذه أربعة أمور: شرٌّ مصدره من نفسه، ويعود على نفسه تارة وعلى غيره أخرى، وشرٌّ مصدره من غيره وهو السبب فيه، ويعودُ على نفسه تارة وعلى غيره أخرى.

وجمع النَّبيُّ ﷺ هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علَّمه الصِّدِّيقَ أن يقولَه إذا أصبح وإذا أمسى، وإذا أخذ مضجعه: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمواتِ والأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيءٍ ومَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنَّ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بكَ مِن شَرِّ نَفْسي، وَشَرِّ الشَّيْطانِ وَشِرْكِهِ،

وأَنْ أقْترفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلى مُسْلِمٍ»[1]، فذكر مصدَرَي الشَّرِّ وهما: النفسُ والشيطانُ، وذكر مَوْرِدَيْهِ ونهايتيه، وهما: عودُه على النفس أو على أخيه المسلم، فجمع الحديثُ مصادرَ الشَّرِّ ومواردَهُ في أوجز لفظٍ وأخصرِه وأجمعِه وأبينِه»[2].

بين الاستعاذة والقضاء والقدر:

بصيرة: الاستعاذة بربِّ الفلق من شرِّ ما خلق نغالب فيها القضاء بالقضاء، والقدر بالقدر.

وحتى تستبين قيمة هذه البصيرة نمضي مع الرازي ﵀ في طرح هذا السؤال:

يظهر في قول تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١، ٢]، أَنَّ الْمُسْتَعَاذَ مِنْهُ هو الشر، فهل هذا الشر وَاقِعٌ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه، أَوْ لا؟ فَإِنْ كَانَ واقعًا بقضاء الله فَكَيْفَ أَمَرَ الله بِأَنْ نستعيذ منه مع أن مَا قَضَى اللهُ بِهِ وَقَدَّرَهُ فَهُوَ وَاقِعٌ؟ وإن لَمْ يَكُنْ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فَذَلِكَ يَقْدَحُ فِي مُلْكِ اللهِ وَمَلَكُوتِهِ، فما الجواب؟[3].

الجواب:

أولًا: أجاب الرازي ﵀ جوابًا عامًّا عن كل هذه الشبهات، إذ قال: "وَاعْلَمْ أَنَّ الْجَوَابَ عَنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ، أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣][4]، وهذا الجواب

---

(١) أبو داود (٥٠٦٧)، الترمذي (٣٥٢٩)، وقال: حديث حسن غريب، وصحَّحه النووي في الأذكار (ص: ٧٨)، والوادعي في الصحيح المسند (١٣٣٣).

(٢) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٧١٥-٧١٨).

(٣) هذا مجمل السؤال كما في تفسير الرازي (٣٢/ ٣٧٣).

(٤) تفسير الرازي (٣٢/ ٣٧٣).

صحيح، وهو قائم على الفرق الذي بين الخالق والمخلوق، فلا يمكن للمخلوق أن يقارِن نفسَه بالخالق حتى يُخضع كلِّ أمرٍ يفعله خالقه لفهمه، بل إن الله ﷻ حكمةً عظمى في الأمر بالاستعاذة، ولكننا لا ندركها؛ لأن الأمر كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ثانيًا: الله –جلَّ مجدُه– له القضاء الأعظم، فعنده أمُّ الكتاب، ولكن له قضاء تفصيلًا يبتلي فيه العباد، فإذا استعاذ العبد فذلك واقع باختيار العبد، واختياره لا يعني أن الله ﷻ لم يقدِّره، وإذا لم يستعذ العبد فذلك باختياره، ولا يعني ذلك أنه لم يُكتب في قدر الله ﷻ، وعندما يستعيذ العبد فإنه يغالِب قضاء الله بقضاء الله، وهذا الجواب العقلي الواضح مثَّل له عمر بن الخطاب رضي الله عنه تمثيلًا بديعًا جميلًا حين قال: «نَعَمْ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ؛ إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ»(١).

ثالثًا: تقرَّر أن الشر ليس في ذات الله ﷻ، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وإنما يكون في مخلوقاته بسببٍ ما يعود لتلك المخلوقات، وهنا نعرف عظمة البيان النبوي، حين قرَّر النبي ﷺ هذه القضية، فقال: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ! وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(٢)

فإن هذا التعبير بمبناه ومعناه، كما يقرِّر ابن القيم رحمه الله «أجلُّ وأعظم من قول من قال: "والشَّرُّ لا يُتَقَرَّبُ به إليك"، وقول من قال: «والشرُّ لا يصعَدُ إليكَ»، وأن هذا الذي قالوه إنما يتضمَّن تنزيهَه: عن صعود الشرِّ إليه والتقرُّب به إليه، لا يتضمَّن تنزيهَهُ في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشَّرِّ، بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدَّق، فإنه يتضمَّنُ تنزيهَه في ذاته تبارك وتعالى عن

(١) البخاري (٥٧٢٩)، "عُدْوَتَانِ" أي: جانبا الوَادِي. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٩٤).

(٢) مسلم (٧٧١).

نسبة الشَّرِّ إليه بوجهٍ ما، لا في صفاتِه، ولا في أفعالِه، ولا في أسمائه، وإن دخل في مخلوقاته، كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١ - ٢]، وتأمَّلْ طريقَة القرآن في إضافة الشَّرِّ تارة إلى سببه ومن قام به، كقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]»(١).

رابعًا: كما تقرَّر أن الشر ليس في ذات الله ﷻ، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، بل هو في مخلوقاته فيجب أن نقرِّر أن «كونه شرًّا هو أمر نسبيٌّ إضافيٌّ، فهو خيرٌ من جهة تعلُّق فعل الرَّبِّ وتكوينه به، وشرٌّ من جهة نسبته إلى من هو شر في حقِّه، فله وجهان، هو من أحدهما خيرٌ، وهو الوجه الذي نُسِبَ منه إلى الخالق سبحانه وتعالى خلقًا وتكوينًا ومشيئة، لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها، وأطْلَعَ من شاء من خلقه على ما شاء منها، وأكثرُ الناس تَضِيقُ عقولُهم عن مبادئ معرفتها، فضلًا عن حقيقتها، فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله -سبحانه- هو الغنيُّ الحميدُ، وفاعل الشر لا يفعله إلَّا لحاجته المنافية لغناه أو لنقصه وعيبه المنافي لحمده، فيستحيلُ صدورُ الشَّرِّ من الغني الحميد فعلًا، وإن كان هو الخالقَ للخير والشَّرِّ، فقد عرفتَ أن كونه شرًّا هو أمرٌ إضافيٌّ، وهو في نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه.

فلا تغفلْ عن هذا الموضع، فإنه يفتحُ لك بابًا عظيمًا من معرفة الرَّبِّ ومحبته، ويزيل عنك شُبُهَات حارتْ فيها عقولُ أكثر الفضلاء»(٢).

---

(١) بدائع الفوائد (/ ٧٢٤).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٧٢٠).

ومن أمثلة ذلك: السارق يسرق فتقطع يده، فقطع يده شر عليه في عاجل النظر، وخير لكل أفراد المجتمع حوله، وهي خير عليه؛ إذ تردعه ردعًا مناسبًا، وتحميه من خسارة الدنيا والآخرة.

قد تقول: عرفنا أن أول خطرٍ نستعيذ منه علمناه الله ﷻ في هذه السورة في قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، **فما ثاني خطر يظهر لنا في قوله:** ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾؟

الجواب:

الخطر الثاني: شر غاسق إذا وقب ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق: ٣].

المناسبة والاتصال:

لما تضمنت الآية السابقة الاستعاذة من شر عموم الخلق، عطف أشياء خاصة هي مما شمله عموم: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:٢]، وهي ثلاثة أنواع من أنواع الشرور:

أحدهما: وقت يغلب وقوع الشر فيه وهو الليل.

والثاني: صنفٌ من الناس أقيمت صناعتهم على إرادة الشر بالغير، وهم النافثات في العقد.

والثالث: صنفٌ من الناس ذوو خُلُقٍ من شأنه أن يبعث على إلحاق الأذى بمن تعلق به، وهم الحسدة[1].

وقد تكونت الآية من خمس كلمات:

الكلمة الأولى: ﴿وَمِن﴾ الواو وصلت الشر الثاني بالشر الأول في الاستعاذة منهما.

الكلمة الثانية: ﴿شَرِّ﴾ أي: الأذى المخصوص المنافي للخير الموجود في غاسق إذا وقب.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٧).

«وأعيدت كلمة ﴿مِن شَرِّ﴾ بعد حرف العطف في هذه الجملة، وفي الجملتين المعطوفتين عليها مع أن حرف العطف مغنٍ عن إعادة العامل؛ قصدًا لتأكيد الدعاء، تعرُّضًا للإجابة، وهذا من الابتهال فيناسبه الإطناب»(1).

الكلمة الثالثة: ﴿غَاسِقٍ﴾: من (غَسَق)(2)، وهو أصلٌ يدل عَلَى شدَّة الظلام الحالك الذي كأنه انصبَّ على العالم، فيظهر أن الغاسق ما ينصبَّ عنده الظلمة انصبابًا، فيذهب بطبيعة الشيء، ويحطمه، فيطلق على كل مظلم محزنٍ، ومن ذلك قول ابن المعتز:

لا أَرَّقَ اللهُ مَـنْ أهـدى لـيَ الأَرَقـا ... وأَوْدَعَ القَلـبَ نـارَ الحُـبِّ فـاحترقا
بَـدْرٌ تـعـرَّضَ لـي عـمـدًا لِـيَـقْـتُـلَـنِـي ... تـذبُّ أنوارُه عن وجهِ الغَسَـقَـا (3)

وَيُقَالُ: غَسَقَتْ عَيْنُهُ: أَظْلَمَتْ -هكذا قال ابن فارس ﵀- فيدخل فيه قول غيره: دَمَعَتْ أو هَمَلَت أو انصبت، ولكن ليس كأيِّ دمع، بل تهمل بالعَمَش لشدتها، وغسَقَ اللبن: انصبَّ من الضرع، ويظهر أن المقصود انصبَّ بقوة حتى كأنه داكنٌ مظلم، وَأَغْسَقَ الْمُؤَذِّنُ، إِذَا أَخَّرَ صَلَاةَ الْمَغْرِبِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ، فكأن الليل يدخل ثم ينصب، وعندما تشتد ظلمة الليل يحدث الغسق، وهناك وصف آخر للغسق هو البرد، فابن عباسٍ ﵄ رأى أن الغسَّاق في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧]، وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤ - ٢٥]، أنه الزمهريرُ الذي يحرقُهم ببرده كما تحرقهم النار بحرِّها.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٧).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (٤/ ٤٢٥)، المفردات في غريب القرآن (ص٦٠٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٥٨٠).

(٣) أخبار أبي القاسم الزجاجي (١ / ٢٦).

وكذلك قال مجاهد ومقاتل ﷺ: هو الذي انتهى بَرْدُهُ[١]، فيظهر أن المراد بالغسَّاق الليل المظلم الذي يصحبه البرد مقارنة بالنهار، فيراد بالغاسق إذن:

١) اللَّيْلُ عندما يظلم أو يعتكر ظلامه كما يقول الزمخشري ﷺ، وليس عندما يدخل.

ومنه قول الشاعر:

إنَّ هـذا اللَّـيـلَ قـد غَسَـقَـا   واشـتـكـيـتُ الـهَـمَّ والأَرَقَـا[٢]

قال القرطبي ﷺ: هذا قول ابن عباس ﷺ، والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم[٣].

والغاسق: وصف الليل إذا اشتدت ظلمته يقال: غسق الليل يغسق، إذا أظلم قال تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء:٧٩]، فالغاسق صفة لموصوف محذوف لظهوره من معنى وصفِه، مثل الجواري في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الشورى:٣٢].

٢) ويدخل فيه القمر إذا ظهر سواء كسف فاسْودَّ أم لا.

ودليل هذا القول حديث عائشة ﷺ قالت: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدَيَّ فَأَرَانِي الْقَمَرَ حِينَ طَلَعَ، فَقَالَ: «تَعَوَّذِي بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ»[٤].

يعلق ابن القيم ﷺ على هذا بقوله: «هذا التفسير حقٌّ، ولا يناقض التفسير الأول بل يوافقه ويشهد بصحته، فإن الله تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، فالقمر هو آية الليل وسلطانه، فهو أيضًا: غاسق إذا وقب، كما أن الليل غاسق إذا وقب، والنبي ﷺ أخبر عن القمر بأنه غاسق إذا وقب، وهذا خبر صدق، وهو

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٧٢٨).

(٢) البيت لابن قيس الرُّقَيَات، كما في أساس البلاغة (١/ ٧٠٢)، ولسان العرب (١٠/ ٢٨٨).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٥٦).

(٤) أحمد (٢٤٣٢٣) واللفظ له، والترمذي (٣٣٦٦)، وقال: حديث حسن صحيح، وحسَّنه محققو المسند.

أصدق الخبر، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب، وتخصيص النبي ﷺ له بالذكر لا ينفي شمول الاسم لغيره»[1].

فإن قلت: ما الحكمة من تنكير ﴿غَاسِقٍ﴾ في هذه الآية؟

الجواب: تنكير ﴿غَاسِقٍ﴾ للجنس؛ لأن المراد جنس الليل، وتنكيرها هنا في مقام الدعاء يراد به العموم؛ لأن مقام الدعاء يناسب التعميم، ومنه قول الحريري رحمه الله في المقامة الخامسة: "يا أهل ذا المَغْنَى وُقِيتم ضُرًّا"، أي: وقيتم كل ضر[2].

الكلمة الرابعة والخامسة: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ :

﴿إِذَا﴾ ظَرْف زَمَانٍ مَبْنِيٌّ عَلَى السُّكُونِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ، أي: في الزمان الذي وقب، وأما كلمة ﴿وَقَبَ﴾ فهي[3] تَدُلُّ عَلَى غَيْبَةِ شَيْءٍ فِي مصمت صلد، فيُقَالُ: وَقَبَ يَقِبُ وُقوبًا: إذا دَخَلَ فِي وَقْبَةٍ، وَهِيَ كَالنُّقْرَةِ فِي شَيْءِ مصمت أو صلد، والوَقْبُ في الجبل: نُقْرَةٌ يَجْتَمِع فيها الماء، والوَقْبَةُ: نَقْرٌ نحو البئر في الصخر تكون قامة أو قامتين يَسْتَنْقِع فيها ماءُ السماء، وكُوَّة عظيمة فيها ظِل، وَوَقَبَتْ عَيْنَاهُ: غَارَتَا، و"رَكِيَّةٌ وَقْبَاءُ": غارَ ماؤها فدخل في أعماق التُّراب، ومنه الوَقْبُ: للثُّقْب الذي يدخل فيه المِحْوَرُ، ووَقَبَتِ الشمسُ: غابت، ووَقَبَ القمرُ: دخل في الظل الذي يكسفه.

---

(١) بدائع الفوائد، (٢/ ٧٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٧)، وهي في مقامات الحريري (ص: ٤٨) بلفظ:

يا أهلَ ذا المَغْنى وُقيتُمْ شَرًّا ... ولا لَقيتُمْ ما بَقيتُمْ ضُرًّا.

(٣) مقاييس اللغة» (٦/ ١٣١)، المفردات في غريب القرآن (ص٨٧٩)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٧٢٥).

فالوقب الدخول في هذه الفجوة التي تسمى الوَقْبة، فكأن الليل يدخل على الشيء بقوة ويسيطر عليه، فيعمه.

فيكون معنى: وقب: تركَّز وتغلغل واشتد.

وما ورد من ذلك من معان تفسير بالمثال الأبرز، وأهم ما ورد فيه:

أولًا: قول اللغويين: الليل إذا أظلم، أي: توغَّل في ظلمته؛ فإن المرء يساوره الخوف من ذلك الوقت؛ إما لانتشار السوء فيه، وإما لأنه وقت التآمر السيئ.

والليل حين يتدفق فيغمر البسيطة يثير الكثير من التخوف من أي مجهول قادم فيه أو بعده "من وَحْش مفترس يهجم، ومُتَلَصِّصٍ فاتك يقتحم، وعدوٍّ مخادع يتمكَّن، وحشرة سامة تزحف، ومن وساوس وهواجس، وهموم وأشجان تتسرب في الليل، وتخنق المشاعر والوجدان، ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء، ومن شهوة تستيقظ في الوحدة والظلام، ومن ظاهر وخافٍ يدب ويثب في الغاسق إذا وقب".

فنستعيذ بالله من شر ذلك الوقت أو شرٍّ يكون فيه، فعن محمد بن كعب القُرَظِيِّ رحمه الله ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣] قال: «هو غروب الشمس إذا جاء الليل، إذا وجب»[١]، «والتعوُّذ من شر الليل؛ لأن انبثاثه فيه أكثر، والتحرُّز منه أصعب، ومنه قولهم: الليل أخفى للويل. وقولهم: أغدر الليل؛ لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر»[٢].

ثانيًا: قول النبي ﷺ: القمر إذا غاب، وهذا -أيضًا- من باب تفسير المثال الأبرز؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فنظر إلى القمر، فقال: «يَا عَائِشَةُ، تَعَوَّذِي بِاللهِ مِنْ

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٧٠٣).

(٢) الزمخشري الكشاف (٤/ ٨٢١).

شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ، هذا غَاسِقٌ إذَا وقَبَ»[1]، «وهذا خبر صدق، وهو أصدقُ الخبر، ولم ينفِ عن اللَّيل اسمَ الغاسق إذا وَقَبَ، وتخصيص النبي ﷺ له بالذِّكر لا ينفي شمولَ الاسم لغيره»[2].

فيدخل في الغاسق إذا وقب القمر الذي هو آية الليل وسلطانه، والليل ذاته.

وقد تسأل: ما الحكمة من تقييد الغاسق بقوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾؟

الجواب: الحكمة من ذلك أن الليل بقمره إذا ظهر أو غاب يمثِّل الوقت المناسب لانبعاث جيوش الظلام؛ إذ تنتشر شياطينُ الإنس والجن بصورة لا تراها في النهار، وها أنت ترى ما أكثر السهرات الفاسقة التي تنتشر في العالم في هذا الوقت، بل لا تكاد تجد فحشًا يمارس في وقتٍ من الأوقات كما تجد ذلك في الليل، ويمثِّل هذا الوقت وقت الأخطار الكبيرة، فإن غيبة القمر تكون في أول الليل في الأيام الأولى من الشهر، ثم يزداد القمر ظهورًا إلى أن يغيب، فيبدأ بالظهور في النصف الثاني من الشهر، وغيابه في بدايات الشهر يعني هدوء الناس، وانتشار الذين يريدون أمورًا خاصة كالمتآمرين على الإنسان، أو انتشار العصابات، ويبين هذا حديث جابرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُرْسِلُوا فَوَاشِيَكُمْ وَصِبْيَانَكُمْ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّى تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْبَعِثُ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّى تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ»[3].

وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى ثَعْلَبٌ عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ رحمهما الله فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْحَدِيثِ: وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الرِّيَبِ يَتَحَيَّنُونَ وَجْبَةَ الْقَمَرِ. وَأَنْشَدَ:

---

(١) أحمد (٢٤٣٢٣) واللفظ له، والترمذي (٣٣٦٦)، وقال: حديث حسن صحيح، وحسَّنه محققو المسند.

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٧٢٩).

(٣) مسلم (٢٠١٣)، «فحمة العشاء» بفتح فاء وسكون حاء: هي إقباله، وأول سواده، يقال لظلمة بين صلاتي العشاء: فحمة، وقيل: هي شدة سواد الليل في أوله.

أَرَاحَنِي اللهُ مِنْ أَشْيَاءَ أَكْرَهُهَا مِنْهَا الْعَجُوزُ وَمِنْهَا الْكَلْبُ وَالْقَمَرُ

هَذَا يَبُوحُ وَهَذَا يُسْتَضَاءُ بِهِ وَهَذِهِ ضِمْرِزٌ قَوَّامَةُ السَّحَرِ[1]

وقال ابن القيم ﷺ: «ولهذا كان سلطانُ السحر وعِظَم تأثيره إنما هو باللَّيل دون النهار، فالسِّحْرُ اللَّيْلِيُّ عندَهم هو السِّحْرُ القويُّ التأثيرُ، ولهذا كانت القلوبُ المظلمةُ هي محالَّ الشياطين وبيوتَهم ومأواهم، والشياطينُ تجولُ فيها وتتحكَّمُ كما يتحكَّمُ ساكنُ البيت فيه، وكلما كان القلبُ أظلم كان للشيطانِ أطوَعَ، وهو فيه أثبَتُ وأمكنُ»[2].

ولذا نستعيذ بالله من شر هذه الأوقات.

بصيرة: الليل محلُّ هجوم الغادرين والمغيرين، فلزم أن يستعيذ المرء من شرِّ المتآمرين والمجرمين.

ويوضح البقاعي ﷺ السر الذي لأجله قُيِّدَ الغاسق بقوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾، فيقول: «ولما كان الشيء الذي اتصف بالظلام، يَكْثُفُ فيشتدُّ انصبابه وأَخْذُه في السُّفول إلى أن يستقرَّ ويستحكم فيما صُوِّب إليه، مجتمعًا جدًّا كاجتماع الشيء في الوَقْبَة وهي النقرة في الصخرة، وكان الظلام لا يشتد أذاه إلا إذا استقر وثبت، قال معبرًا بأداة التحقق: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾، أي: اعتكر ظلامه ودخل في الأشياء بغاية القوة، كدخول الثقيل الكثيف المنصب في النقرة التي تكون كالبئر في الصخرة الصماء الملساء، وهذا إشارة إلى أنه يسهل علاجه وزواله قبل تمكنه»[3].

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٥٧)، الضِّمرز: الناقة المسنة. ومن النساء الغليظة.

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٧٣٣).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤١٠).

وذكر ابن عاشور ﵀ أن تقييد ذلك بظرف ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: إذا اشتد ظلمته؛ لأن ذلك وقت يتحيَّنُه الشطَّار وأصحاب الدعارة والعَيث، لتحقق غلبة الغفلة والنوم على الناس فيه، يقال: أغدر الليل، لأنه إذا اشتد ظلامه كثُر الغدر فيه، فعبَّر عن ذلك بأنه أغدر، أي: صار ذا غدر على طريق المجاز العقلي... فخص بالتعوذ أشد أوقات الليل توقُّعًا لحصول المكروه(1).

سورة الفلق تصور مشهد ظلام يبعث على الرهبة ويقتضي التعوذ:

تتعاضد آيات السورة وألفاظها لتعرض لك الشرور المستعاذ منها في صورة مظلمة تثير الرهبة، وتقتضي من العبد أن يلجأ إلى الله ﷻ، وأول تلك الشرور المستعاذ منها: «﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، وفي هذا التنكير والشمول يتحقق الغموض والظلام المعنوي في العموم. ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ الليل حين يدخل ظلامه إلى كل شيء، ويمسي مرهوبًا مخوفًا. ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾. وجوُّ النفث في العقد من الساحرات والكواهن كله رهبة وخفاء وظلام، بل هن لا ينفثن غالبًا إلا في الظلام. ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾، والحسد انفعال باطني مطمور في ظلام النفس، غامض كذلك مرهوب.. الجو كله ظلام ورهبة، وخفاء وغموض»(2).

وهذا التفسير النبوي من باب ضرب المثال أو من باب التفسير باللازم والاقتران، وقد رد ابن تيمية ﵀ على ابن قتيبة ﵀ جزمه بأن (الغاسق): القمر إذا كسف واسودَّ، وأن معنى ﴿وَقَبَ﴾: دخل في الكسوف، فقال: «وهذا ضعيف؛ فإنَّ ما قال رسول الله ﷺ لا يعارَض بقول غيره، وهو لا يقول إلا الحق، وهو لم يأمر عائشة ﵂ بالاستعاذة منه عند كسوفه، بل

---

(1) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٧).

(2) التصوير الفني في القرآن الكريم (ص: ١١٥).

مع ظهوره، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، فالقمر آية الليل، وكذلك النجوم إنما تطلع فتُرى بالليل، فأَمْرُه بالاستعاذة من ذلك أمرٌ بالاستعاذة من آية الليل ودليلِه وعلامتِه، والدليل مستلزم للمدلول، فإذا كان شر القمر موجودًا، فشر الليل موجود، وللقمر من التأثير ما ليس لغيره، فتكون الاستعاذة من الشرِّ الحاصل عنه أقوى، ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسَّس على التقوى: «هو مسجدي هذا»(١)، مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعًا...

فالتخصيص لكون المخصوص أولى بالوصف، فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة، والليل مظلم تنتشر فيه شياطين الإنس والجن ما لا تنتشر بالنهار، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك، فالشر دائمًا مقرون بالظلمة؛ ولهذا إنما جعله الله ﷻ لسكون الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار، ويتوسلون بالقمر وبدعوته، والقمر وعبادته، وأبو معشر البلخي له "مصحف القمر" يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه»(٢).

ثالثًا: هو نجم الثريا تكثر عند سقوطه الأمراض أو الآفات ، ومثَّل لها ابْنُ زَيْدٍ ؒ بقوله: «كَانَتِ الْعَرَبُ تَقُولُ: الْغَاسِقُ: سُقُوطُ الثُّرَيَّا، وَكَانَتِ الْأَسْقَامُ وَالطَّوَاعِينُ تَكْثُرُ عِنْدَ وُقُوعِهَا، وَتَرْتَفِعَ عِنْدَ طُلُوعِهَا»(٣).

(١) أحمد (١١٨٤٧)، وقال محققو المسند: حديث صحيح.
(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٧).
(٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٧٠٣).

فالعرب يرون أن أوبأ أوقات السَّنة ما بين مغيب الثريا إلى طلوعها، ويقولون: «ما طلعت الثريا ولا نأت إلا بعاهة في الناس والإبل، وغروبها أعوه من شروقها»(١).

والصحيح أن هذه الأقوال جميعَها، داخلة في معنى الآية؛ ولذا قال الطبري رحمه الله: «وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي بِالصَّوَابِ، أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَسْتَعِيذَ من شرِّ ﴿غَاسِقٍ﴾ وَهُوَ الَّذِي يُظْلِمُ، يُقَالُ: قَدْ غَسَقَ اللَّيْلُ يَغْسِقُ غُسُوقًا: إِذَا أَظْلَمَ، ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣] يَعْنِي: إِذَا دَخَلَ فِي ظَلَامِهِ؛ وَاللَّيْلُ إِذَا دَخَلَ فِي ظَلَامِهِ غَاسِقٌ، وَالنَّجْمُ إِذَا أَفَلَ غَاسِقٌ، وَالْقَمَرُ غَاسِقٌ إِذَا وَقَبَ، وَلَمْ يُخَصِّصْ بَعْضَ ذَلِكَ، بَلْ عَمَّ الْأَمْرُ بِذَلِكَ، فَكُلُّ غَاسِقٌ، فَإِنَّهُ ﷺ كَانَ يُؤْمَرُ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّهِ إِذَا وَقَبَ»(٢).

وهنا نسأل: هل هناك تناسب بين وصف ربِّنا عز وجل المستعاذَ به بأنه رب الفلق، وهذين الشرين المستعاذ منهما، وهما: شرور الخلق جميعًا، وشر ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾؟

الجواب:

يفاجئك ابن تيمية رحمه الله باستنباط رائع جميل يُظهِرُ ملكته القوية في استنباط التناسب بين المستعاذ به والمستعاذ منه، فيقول: «وإذا قيل: الفلق يعم ويخص، فبعمومه للخلق أستعيذ من شر ما خلق، وبخصوصه للنور النهاري أستعيذ من شر غاسق إذا وقب، فإن الغاسق قد فسِّر بالليل كقوله عز وجل: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وهذا قول أكثر المفسرين وأهل اللغة. قالوا: ومعنى ﴿وَقَبَ﴾: دخل في كلِّ شيء»(٣).

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٦/ ٦٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٧٠٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٥).

ولعل ابن القيم رحمه الله أخذ هذه البصيرة من شيخه وزاد عليها، فقال: «ومن هاهنا تعلم السِّرَّ في الاستعاذة ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ في هذا الموضعِ، فإن الفلقَ: الصُّبْحُ الذي هو مبدأُ ظهور النور، وهو الذي يطردُ جيش الظلام وعَسْكر المفسدين في الليل، فيأوي كلُّ خبيث وكلُّ مفسدٍ وكلُّ لصٍّ وكلُّ قاطع طريق إلى سَرَبٍ أو كِنٍّ أو غارٍ، وتأوي الهوامُّ إلى جِحَرتها[1]، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتِها ومحالِّها»[2].

مشهد تراجع فلول الظلام أمام فيالق الفلق:

يعلِّمنا الله -جلَّ مجده- أن نستعيذ ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ الذي يفلق الإصباح من الظلمة المطبقة فيزيلها ويبعدها، ويغلب أصحابها وأولياءها وعساكرها وجنودها وقادتها وجيشها، ويخرج أولياءه إن استعاذوه من هذه الظلمات الحالكة التي تحاصرهم إلى نوره العظيم الذي يرفعهم ويهديهم ويكرمهم، بينما ترى جند الشيطان وأولياءه من الإنس والجان باقين في تلك الظلمات، ويهربون من النور الذي يدعوهم إليه رب الأرض والسموات، كما قال تعالى مجده: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وبيَّن الله ﷻ أنه مصدر النور، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ

---

(١) «الجُحْرُ: كُلُّ شَيْءٍ تَحْتَفِرُه الهَوامُّ وَالسِّبَاعُ لأَنفسها، وَالْجَمْعُ أَجْحارٌ وجِحَرَةٌ» «لسان العرب» (٤/ ١١٧).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٧٣٣).

وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

فعندما يسمِّي مجرمو العالم ظلماتهم وظلمهم وسفهاتهم وإجرامهم أنوارًا، فذلك لخداع الناس فحسب، وكذلك عندما يصل بهم الضلال إلى أن يُسَمُّوا الشيطان (إله النور–لوسيفر)، فالله –تعالى شأنه– يبين مصدر النور الحقيقي، فيقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

«فالإيمان كلُّه نور، ومآله إلى نور، ومستقرُّه في القلب المضيء المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة، والكفر والشرك كله ظلمة، ومآله إلى الظلمات، ومستقره في القلوب المظلمة والمقترن بها الأرواح المظلمة»(١).

بِهُدى الإلهِ تُنوَّرُ الأرجاءُ ... وبنورِه تتبدَّدُ الظَّلماءُ
وعلى طريقٍ واضحٍ منْ نَهْجِهِ ... نمضي هُداةً فالسَّبيلُ سواءُ
وإلى جنان الخلد يغمرنا سَنًا ... نورٌ يزفُّ مسيرنا وضَّاءُ
وكتابُه نورُ القلوبِ وأُنسُها ... وكلامُهُ للعالمينَ شفاءُ
كلُّ الدُّروبِ بغيرِ ربي ظُلمةٌ ... وبدونه كلُّ الحياة شقاءُ(٢)

وهنا نتساءل: إذا كان الخطر الثاني: هو شر غاسق إذا وقب، فما الخطر الثالث؟

الجواب:

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٣٣-٧٣٥).

(٢) الأبيات للدكتور: سعيد بن دحباج –وفقه الله–.

الخطر الثالث: شر السِّحر، وهو الذي تعمله النفاثات في العقد ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾.

المناسبة والاتصال:

وقد تسأل: ما المناسبة والاتصال بين هذا الخطر والذي قبله؟ وهل هناك سر في هذا الترتيب بين الخطرين؟

الجواب:

«هذا النوع الثاني من الأنواع الخاصة المعطوفة على العام من قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:٢]، وعطف (شر النفاثات في العقد) على (شر الليل)؛ لأن الليل وقت يتحين فيه السحرة إجراء شعوذتهم؛ لئلا يطلع عليهم أحد»(١).

وهنا نسأل عن مدى قوة هذه الكلمة القرآنية: ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾، فما سر التعبير بها؟

الجواب: كلمة ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ لها وقع غامض مخيف في السمع، فهي جمع نفَّاثة، مشتقة من نفث(٢)، والنَّفْث: خُرُوج شَيْءٍ مِنْ فَمٍ أَوْ غَيْرِهِ بِأَدْنَى جَرْسٍ، ومِنْهُ: نَفَثَ الرَّاقِي رِيقَهُ إذا قذف الرِّيقِ القليلِ، وَهُوَ أَقَلُّ مِنَ التَّفْلِ، فهو بين النفخ والتفل، والنُفَاثَة: ما تَنْفُثُه من فيك.

فتشعرك الكلمة في سياقها هنا بالخطر الذي تمثِّله النَّفْس التي تقذف الريق القليل في مجموعة من العقد الغامضة التي تجمعها أمامها.

والنفث: نفخ مع تحريك اللسان بدون إخراج ريق فهو أقل من التفل، يفعله السحرة

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٧).

(٢) مقاييس اللغة (٥/ ٤٥٧)، المفردات في غريب القرآن (ص٨١٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢٢٣٢).

إذا وضعوا علاج سحرهم في شيء وعقدوا عليه عُقَدًا ثم نفثوا عليها[1].

فإن قيل: ما المراد بـ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ في الآية؟

فالجواب أنَّ لأهل التفسير في المراد بها قولين:

القول الأول: النساء النفاثات، فخصه بالإناث من بني آدم.

القول الثاني: النفوس النفاثات؛ إذ يقوم أصحابها بجمع أدواتٍ معينة ربما أخذوها من جسم المسحور، ثم يربط الواحد منهم تلك الأداة بطقوس معينة بخيط، ويجعل عليها عقدة، وينفث فيها لينعقد السحر الذي تريده تلك النفس الخبيثة، وهذا الذي يظهر رجحانه.

و(ال) التعريف تشير إلى أن هؤلاء المشعوذات أو تلك النفوس الخبيثة النفاثة في العقد معروفة عند الناس.

و﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ بناء على المبالغة[2]، يدل على كثرة واستمرار مزاولةِ هذه الأعمال الشريرة الشيطانية منهن.

وهذا يدفعنا إلى السؤال: هل النفث ممنوع على الإطلاق؟

الجواب: نُقِل عن عِكْرِمَة رحمه الله قال: لَا يَنْبَغِي لِلرَّاقِي أَنْ يَنْفُثَ وَلَا يَمْسَحَ وَلَا يَعْقِدَ، وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ رحمه الله قَالَ: كَانُوا يَكْرَهُونَ النَّفْثَ فِي الرُّقَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: دَخَلْتُ عَلَى الضَّحَّاكِ رحمه الله وَهُوَ وَجِيعٌ فَقُلْتُ: أَلَا أُعَوِّذُكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ لَا تَنْفُثْ، فَعَوَّذْتُهُ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ. قَالَ الْحَلِيمِيُّ رحمه الله: الَّذِي رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ رحمه الله أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلرَّاقِي أَنْ لَا يَنْفُث وَلَا يَمْسَحَ وَلَا يَعْقِدَ، فَكَأَنَّهُ ذَهَبَ فِيهِ إِلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ النَّفْثَ فِي الْعُقَدِ مِمَّا يُسْتَعَاذُ مِنْهُ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَنْهِيًّا عَنْهُ إِلَّا أَنَّ هَذَا ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ النَّفْثَ فِي الْعُقَدِ إِنَّمَا يَكُونُ مَذْمُومًا إِذَا كَانَ سِحْرًا مُضِرًّا

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٧).

(٢) معترك الأقران (٢/ ٥٥٦).

بِالْأَرْوَاحِ وَالْأَبْدَانِ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ هَذَا النَّفْثُ لِإِصْلَاحِ الْأَرْوَاحِ وَالْأَبْدَانِ وَجَبَ أَنْ لَا يَكُونَ حَرَامًا فَلَا يُقَاسُ مَا يَنْفَعُ بِمَا يَضُرُّ، وَأَمَّا كَرَاهَةُ عِكْرِمَةَ ﵀ الْمَسْحَ فَخِلَافُ السُّنَّةِ»[1].

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه مسح وأنه نفث، فمن ذلك:

عَنْ عَلِيٍّ ﵁، قَالَ: اشْتَكَيْتُ، فَأَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أَقُولُ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَجَلِي قَدْ حَضَرَ فَأَرِحْنِي، وَإِنْ كَانَ مُتَأَخِّرًا فَاشْفِنِي -أَوْ عَافِنِي-، وَإِنْ كَانَ بَلَاءً فَصَبِّرْنِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» قَالَ: فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: فَمَسَحَ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ اشْفِهِ، أَوْ عَافِهِ»، قَالَ: فَمَا اشْتَكَيْتُ وَجَعِي ذَاكَ بَعْدُ[2].

وأما النفث فتخبرنا أم المؤمنين عائشة ﵂: «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات، ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه، طفقتُ أنفثُ على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث، وأمسح بيد النبي ﷺ عنه»[3].

فإن قلت: إذا كان هذا هو معنى ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾، فما معنى ﴿ٱلۡعُقَدِ ٤﴾؟

الجواب:

﴿ٱلۡعُقَدِ﴾: مشتقة من «(عَقَدَ)[4] إذا شَدَّ الشيء بإحكامٍ وثيق، يثق من يراه أنه لن ينفرط، فيقال: عَقَدَه يَعْقِده عَقْدًا، وقد يكون ذلك بأن يجمع بين أطراف الشيء أو أطرافٍ منه جمعًا

---

(١) تفسير الرازي (٣٢/ ٣٧٠).

(٢) أحمد (١٠٥٧)، زالترمذي (٣٥٦٤) وقال: حسن صحيح، وقال الحافظ ابن حجر فيما نقله عنه ابن علان في "الفتوحات الربانية" ٤/ ٦٤: هذا حديث صحيح، وحسن إسنادَه محققو المسند.

(٣) البخاري (٤٤٣٩).

(٤) مقاييس اللغة (٤/ ٨٦)، المفردات في غريب القرآن (ص٥٧٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٤٩٩).

وثيقًا يعلم أنه لن يُحَلَّ بيسر، ويستعمل ذلك في الأجسام الصّلبة كعقد الحبل وعقد البناء، ثم يستعار ذلك في المعاني للتصميم والاعتقادِ الجَازِم نحو: عَقْدِ البيع والعهد.

و﴿ٱلْعُقَدِ﴾: جمع عقدة، وهي ما يُدار ويُلوى من الخيوط، والمراد بها هنا: ما تعقده الساحرة، ويقال لها: عزيمة، وَيُقَالُ إِنَّ الْمُعْقِدَ: السَّاحِرُ، قَالَ ذو الرُّمَّة:

يُعَقِّدُ سِحْرَ الْبَابِلِيِّيْنِ طَرَفُهَا مِرَارًا وَيَسْقِينَا السُّلافَ مِنَ الْخَمْرِ[1]

وعلاقة (العقد) بـ(النفاثات) أن السحرة يزعمون أن النفث في هذه العُقَد يُبقي السحر مستمرًا، وتتكون هذه العُقَد من أشياء خاصَّة، قد يكون منها جزءٌ من جسد المسحور مثل شعرة منه، «ويزعم السحرة أن سحر المسحور يستمر ما دامت تلك العقد معقودة، ولذلك يخافون من حلِّها فيدفنونها أو يخبئونها في محل لا يهتدى إليه، أمر الله رسوله ﷺ بالاستعاذة من شر السحرة لأنه ضَمِنَ له أن لا يلحقه شرُّ السحرة»[2]، ويبين الطبري رحمه الله هذا المعنى، فيقول: «ومن شرِّ السواحر اللاتي ينفُثن في عُقَد الخيط، حين يَرْقِين عليها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما خالط السِّحر من الرُّقَى»[3].

وقد يتساءل الإنسان: السحر يصدر من الذكور والإناث، فلماذا خص الإناث؟

الجواب: الصحيح أن المعنى: ومن شر النفوس النفاثات في العُقَد، فيدخل في ذلك الذكور والإناث، وتكون كلمة ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ صفة لموصوف محذوف، وإنما وُصفت النفوس بذلك؛ لأن شرط نفاذ السِّحر أن تكون النفس النافثة ذات قوة خبيثة باطنة يكملها النفث الذي

---

(١) البيت لذي الرُّمَّة في ديوانه (٣/ ١٨٧٧)، وفي مقاييس اللغة بدون نسبة وبلفظ: (وَتَسْقِينَا سُلَافًا).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٨).

(٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٧٠٤).

تقوم به، ويمكن أن يقال: وُصفت النساء بالنفاثات لكثرته فيهن، ويلحق بهن الرجال الذين يفعلون ما يفعلن.

قال ابن عاشور رحمه الله: «وإنما جيء بصفة المؤنث؛ لأن الغالب عند العرب أن يتعاطى السحر النساء؛ لأن نساءهم لا شغل لهن بعد تهيئة لوازم الطعام والماء والنظافة، فلذلك يكثر انكبابهن على مثل هاته السفاسف من السحر والتكهن ونحو ذلك، فالأوهام الباطلة تتفشى بينهن، وكان العرب يزعمون أن الغول ساحرة من الجن»(١).

وهنا لا بد أن نسأل: هل للسحر تأثير كبير حتى نستعيذ الله عز وجل من الأنفس الخبيثة التي تنفث في العقد؟

الجواب:

الاستعاذة من النفاثات يدل على أن للسِّحر تأثيرًا حقيقيًّا يتعدى التخييل، إذ وصف الله عز وجل ذلك بقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقد وصف الله عز وجل سحر سحرة فرعون بأنه عظيم؛ إذ قال: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ولا يمكن أن يكون هذا إلا لأثر في الرائي أو المرئي، وأما من زعم أن ذلك لأنهم وضعوا زئبقًا فكلامه غير صحيح؛ لأن معنى ذلك أنهم خدعوا الموجودين بما يشبه ألعاب الخِفَّة، ولا يسمى هذا سحرًا، فكيف يوصف بأنه عظيم؟!

قال ابن القيم رحمه الله: «فإذا جاز على الساحر أن يَسْحَرَ جميعَ أعينِ النَّاظرين –مع كثرتهم– حتى يَرَوا الشيءَ بخلاف ما هو به –مع أن هذا تَغَيُّرٌ في إحساسهم– فما الذي يحيلُ تأثيره في تغيير

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٨).

بعض أعراضهم وقُواهم وطِباعهم؟! وما الفرقُ بين التَّغيير الواقع في الرُّؤية والتَّغيير في صفة أخرى من صفات النفس والبَدَن»(١).

وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً، لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذلك اليوم سُمٌّ ولا سِحْرٌ»(٢)، والجمع بين السُّمِّ والسِّحر يدلُّ على أن للسِّحر تأثيرًا كبيرًا على الإنسان يشبه تأثير السُّمِّ.

وهنا يأتي السؤال عن هذا الشر الغامض: ما نوع الاستعاذة من الشر الذي يصدر عن النفاثات؟

الجواب: الاستعاذة من شر النفاثات يحتمل عدة وجوه:

الوجه الأول: أن يستعيذ الإنسان من هذه النفوس النفاثة في ذاتها؛ لأنها نفوس امتلأت بالخبث والرداءة الباطنة، فصار الشر جزءًا منها محبَّبًا لها.

الوجه الثاني: أن يستعيذ الإنسان من شعوذتها وعملها السيئ؛ فإن النفس الخبيثة النافثة تمتلئ بالشر الذي تريد أن تصنعه بالمسحور، وتتصل بالشياطين الخبيثة، ثم تنفخ نفخًا فيه شيء من ريقها في كلِّ عُقدة ربطتها على أداة محدَّدة، ووجهتها لتنال من المسحور، فإن لم توجد المقاومة الكافية عند المسحور حدث له الضرر.

وقد ذكروا أن عُمَارَة بْن الْوَلِيدِ كان رَجُلًا جَمِيلًا، قَالَ: فَأَقْبَلَا فِي الْبَحْرِ إِلَى النَّجَاشِيِّ، قَالَ: فَشَرِبُوا، قَالَ: وَمَعَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا شَرِبُوا الْخَمْرَ قَالَ عُمَارَةُ لِعَمْرٍو: مُرِ امْرَأَتَكَ فَلْتُقَبِّلْنِي، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو رضي الله عنه: أَلَا تَسْتَحْيِي، فَأَخَذَهُ عُمَارَةُ فَرَمَى بِهِ فِي الْبَحْرِ، فَجَعَلَ عَمْرٌو رضي الله عنه يُنَاشِدُهُ حَتَّى أَدْخَلَهُ السَّفِينَةَ، فَحَقَدَ عَلَيْهِ عَمْرٌو رضي الله عنه ذَلِكَ، فَقَالَ عَمْرٌو رضي الله عنه لِلنَّجَاشِيِّ:

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٤٦).

(٢) البخاري (٥٤٤٥).

إِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ خَلفَ عُمَارَةُ فِي أَهْلِكَ، قَالَ: فَدَعَا النَّجَاشِيُّ بِعُمَارَةَ فَنَفَخَ -أي السواحر- فِي إِحْلِيلِهِ فَصَارَ مَعَ الْوَحْشِ(١).

الوجه الثالث: أن يستعيذ الإنسان من افتتان الناس بهذه الأنفس النفاثة في العقد، إذ يقوم الواحد أو تقوم الواحدة منهن بخداع الناس، وإظهار أنها تقدر على التأثير على أي إنسانٍ تريد التأثير عليه، وتستعين بالشياطين، ويرى الناس شيئًا من ذلك، فيلجؤون إليها ظانين أنهم يستطيعون أن يحققوا أهدافهم عن طريق هذه النفس النفاثة، سواء أكانت رجلًا أم امرأة.

الوجه الرابع: أن يستعيذ الإنسان من الشر الذي يحدث بعد أن ينفثن في العقد(٢).

وتعال مجدَّدًا إلى قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ٤﴾ فالتعبير بهذه الصورة يلفت النظر، فلماذا كانت الاستعاذة من ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ لا من النفث، فَلَمْ يَقُلْ: إِذَا نَفَثْنَ فِي الْعُقَدِ؟

الجواب: يرى ابن عاشور رحمه الله أن ذلك «لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ نَفْثَهُنَّ فِي الْعُقَدِ لَيْسَ بِشَيْءٍ يَجْلِبُ ضُرًّا بِذَاتِهِ، وَإِنَّمَا يَجْلِبُ الضُّرَّ النَّافِثَاتُ وَهُنَّ مُتَعَاطِيَاتُ السِّحْرِ؛ لِأَنَّ السَّاحِرَ يَحْرِصُ عَلَى أَنْ لَا يَتْرُكَ شَيْئًا مِمَّا يُحَقِّقُ لَهُ مَا يَعْمَلُهُ لِأَجْلِهِ إِلَّا احْتَالَ عَلَى إِيصَالِهِ إِلَيْهِ، فَرُبَّمَا وَضَعَ لَهُ فِي طَعَامِهِ

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٠) (٣٩٤٠٠)، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ٣١): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ»، وصححه محقِّق المصنف (سعد بن ناصر الشثري)، وكذا الصوياني في الصحيح من أحاديث السيرة (ص: ٩٢).

(٢) من بدع التفسير الرأي الذي نقله الرازي رحمه الله في تفسيره (٣٢/ ٣٧٤) عن أبي مسلم الأصفهاني: «﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ أَيِ: النِّسَاءِ. ﴿فِى ٱلْعُقَدِ﴾ أَيْ: فِي عَزَائِمِ الرِّجَالِ وَآرَائِهِمْ، وَهُوَ مُسْتَعَارٌ مِنْ عَقْدِ الْحِبَالِ، وَالنَّفْثُ وَهُوَ تَلْيِينُ الْعُقْدَةِ مِنَ الْحَبْلِ بِرِيقٍ يَقْذِفُهُ عَلَيْهِ لِيَصِيرَ حَلُّهُ سَهْلًا، فَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ النِّسَاءَ لِأَجْلِ كَثْرَةِ حُبِّهِنَّ فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ يَتَصَرَّفْنَ فِي الرِّجَالِ، يُحَوِّلْنَهُمْ مِنْ رَأْيٍ إِلَى رَأْيٍ، وَمِنْ عَزِيمَةٍ إِلَى عَزِيمَةٍ، فَأَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ بِالتَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّهِنَّ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التَّغَابُن: ١٤]؛ فَلِذَلِكَ عَظَّمَ اللهُ ﷻ كَيْدَهُنَّ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يُوسُف: ٢٨].

ثم عقَّب الرازي رحمه الله على هذا الرأي، فقال: "وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ حَسَنٌ، لَوْلَا أَنَّهُ عَلَى خِلَافِ قول أكثر المفسرين».

ويظهر لي أن رأي أبي مسلم هنا ظاهر الفساد، ويخالف اللغة والواقع، ولا أدري كيف يستحسنه الرازي.

أَوْ شَرَابِهِ عَنَاصِرَ مُفْسِدَةً لِلْعَقْلِ أَوْ مُهْلِكَةً بِقصد أَو بِغَيْر قَصْدٍ، أَوْ قَاذُورَاتٍ يُفْسِدُ اخْتِلَاطُهَا بِالْجَسَدِ بَعْضَ عَنَاصِرِ انْتِظَامِ الْجِسْمِ، يختلُّ بها نشاط أعصابه أَوْ إِرَادَتُهُ، وَرُبَّمَا أَغْرَى بِهِ مَنْ يَغْتَالُهُ أَوْ مَنْ يَتَجَسَّسُ عَلَى أَحْوَالِهِ لِيُرِيَ لِمَنْ يَسْأَلُونَهُ السِّحْرَ أَنَّ سحره لَا يتخَلَّف وَلَا يخطىء»[1].

وهنا نسأل: عرفنا الخطر الثالث الغامض، وهو خطر النفاثات في العقد، فما الخطر الرابع؟

الجواب:

الخطر الرابع: شر الحاسد إذا حسد ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾ [الفلق: ٥].

المناسبة والاتصال:

عطف شر الحاسد على شر الساحر المعطوف على شر الليل، لمناسبة بينه وبين المعطوف عليه مباشرة وبينه وبين المعطوف عليه بواسطته، فإن مما يدعو الحاسد إلى أذى المحسود أن يتطلب حصول أذاه، فيلجأ إلى السحرة وسحرهم؛ لتوهم أن السحر يزيل النعمة التي حسده عليها، فيستعين بالساحر على ذلك، ولأن ثوران وجدان الجسد يكثر في وقت الليل؛ لأن الليل وقت الخلوة وخطور الخواطر النفسية واجتماعها وتركيز التفكر في الأحوال الحافة بالحاسد وبالمحسود[2].

فإن قلت: الحاسد إذا حسد يصبح خطرًا هائلًا ماحقًا، وهذا يدفعنا إلى التساؤل: ما قوة هذه الكلمة القرآنية هنا: ﴿حَاسِدٍ﴾؟

الجواب:

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٩).

(٢) التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٩).

الحَسَد[1]: صفة نفسية، كاظمة للنفس، مسيطرة على المشاعر، تستحوذ على التفكير، وليستوعب المرء خطرها ينبغي أن يتصورها على حقيقتها، فهي تتركب من أمرين: الأول: اسْتِحْسَان نِعْمَةٍ لدى الْغَيْرِ، والثاني: تَمَنِّي زَوَالِهَا عَنْهُ؛ لِأَجْلِ غَيْرَةٍ عَلَى اخْتِصَاصِ الْغَيْرِ بِتِلْكَ الْحَالَةِ، أَوْ عَلَى مُشَارَكَتِهِ الْحَاسِدَ فِيهَا[2].

فالحسد أن تتمنَّى زوال نعمة المحسود إليكَ، أو عدم حصول النعمة للغير شحًّا عليه بها، فيقال: حَسَدَه يَحْسُدُهُ -بضم السين، وأجازوا كسرها- حُسُودًا وحَسَدًا وحَسَادة، وحَسَدْتُك على الشيء وحَسَدْتُك الشيءَ بمعنى، قال الشاعر يصف الجنَّ:

أَتَـوا نـاري فَـقُـلـتُ مَـنُـونَ أنـتـم فقـالـوا: الـجِنُّ قُـلـتُ: عِـمُـوا ظَـلاما
فَـقُـلـتُ: إلـى الـطَّـعـامِ فـقـال مـنـهـم زعـيـمٌ: نَـحْـسُــدُ الإنـسَ الـطَّـعَـامـا[3]

وذُكر عن ابْنِ الأَعرابي ﷺ أنه مشتق من الحَسْدَل وهو القُراد، وَمِنْهُ أُخذ الْحَسَدُ؛ لأنه يُقَشِّرُ الْقَلْبَ كَمَا تُقَشِّرُ الْقُرَادُ الْجِلْدَ فَتَمْتَصُّ دَمَهُ[4].

ويرى الدكتور محمد حسن جبل ﷺ أن كلمة: حسد جاءت من "حس" أضيف لها صوت الدال، فيكون المعنى المحوري لها: شعور حادٌّ يحتبس في جوف الحاسد فيكرَه وُجُودَ النعمة عند المحسود إن كانت موجودة، وصيروتَها إليه إن لم تكن[5].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ٦١)، المفردات في غريب القرآن (ص٢٣٤)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٤٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٩).

(٣) نسبه الجاحظ إلى شَمر بن الحارث الضَّبِّي. ينظر: الحيوان (٦/ ٤١٨)، وقيل اسمه شُمَير، وقبل: سمير. ينظر: النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري (ص: ٣٨٠). و(منون) جمع (من)، شبه مَنْ بأيٍّ فقال، منون أنتم؟ كقوله أَيُّونَ أنتم؟. المحكم والمحيط الأعظم (١٠/ ٤٧٠)، لسان العرب (١٣/ ٤١٩).

(٤) لسان العرب (٣/ ١٤٩).

(٥) المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٤٢٧).

الحسد آفة متجذرة في النفس البشرية:

من الحقائق المتعلقة بكلِّ نفسٍ بشرية، أن الحسد مرضٌ موجودٌ في أكثر أنفس البشر، لكن ضرره لا يتحقق إلا إذا فعَّله صاحبه، ومكَّنه من نفسه، فلا يدخل الأنبياء هنا؛ لأنهم معصومون من هذا المرض الخبيث، وسيد الأنبياء ﷺ أعظمهم نقاء وصفاء، فقد أخرج الملكان حظَّ الشيطان من قلبه، وهو خير إنسان ﷺ، ولكننا نجد أن كلَّ نفسٍ بشرية تحمل هذه الصفة كامنة في ذاتها، ولذلك قيل: «ما خلا جسدٌ من حسدٍ، لكن اللئيمَ يُبديه، والكريمَ يُخفيه»(١).

وقد بيَّن النبي ﷺ لزوم هذه الصفة للإنسان، ومدافعة الإيمان لها، فقال: «إذا ظَنَنْتُمْ فَلَا تُحَقِّقُوا، وَإِذا حَسَدْتُمْ فَلَا تَبْغُوا، وَإِذا تَطَيَّرْتُمْ فامْضُوا، وعَلى الله فَتوَكَّلُوا، وَإِذا وَزَنْتُمْ فأرْجِحُوا» (٢)، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فِي الْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ خِصَالٍ: الطِّيَرَةُ وَالظَّنُّ وَالْحَسَدُ، فَمَخْرَجُهُ مِنَ الطِّيَرَةِ أَنْ لَا يَرْجِعَ، وَمَخْرَجُهُ مِنَ الظَّنِّ أَنْ لَا يُحَقِّقَ، وَمَخْرَجُهُ مِنَ الْحَسَدِ أَنْ لَا يَبْغِيَ»(٣).

وسَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ ﷺ، فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ؟ قَالَ: «لَا أَبَا لَكَ، أَمَا أَنْسَاكَ بَنِي يَعْقُوبَ»(٤)، وينسب للشافعي ﷺ:

---

(١) أمراض القلوب وشفاؤها، ابن تيمية، (ص: ٢١).

(٢) الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (١/ ١٢٤)، وعزاه لابن ماجه عن جابر ﷺ، قال الألباني: "وليس عند ابن ماجه منه إلا الجملة الأخيرة فقط، وأورده الحافظ في " تسديد القوس " بالطرف الأول، مشيرًا إلى تمامه بقوله:"الحديث. ابن ماجه من رواية محارب عن جابر ﷺ، وهذا يوهم أنه عند ابن ماجه بتمامه، وليس كذلك كما تقدم.... ومع ذلك؛ فإني أميل إلى ثبوت الحديث لشواهده". انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣٩٤٢).

(٣) التوبيخ والتنبيه لأبي الشيخ الأصبهاني (٧٩)، وقال الألباني في "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة" (٩/ ٢٤): «وبالجملة؛ فالحديث ضعيف مرسلًا ومتصلًا؛ لأن مداره على ابن إسحاق؛ وهو مدلس وقد عنعنه».

(٤) الزهد لهناد بن السري (٢/ ٦٤٢).

وكلُّ أُداريهِ على حَسْبِ حالهِ ... سوى حاسدي فَهْيَ التي لا أنالُها
وكيفَ يُداري المرءُ حاسِدَ نعمةٍ ... إذا كان لا يُرضيهِ إلّا زوالُها[1]

وقال ابن عبد البر رحمه الله: وَيُقَالُ: إِنَّ الْحَسَدَ لَا يَكَادُ يَسْلَمُ مِنْهُ أَحَدٌ، فَمَنْ لَمْ يَحْمِلْهُ حَسَدُهُ عَلَى الْبَغْيِ لَمْ يَضُرَّهُ حَسَدُهُ، وَرَوَيْنَا عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رحمه الله أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا وَقَدْ خُلِقَ مَعَهُ الْحَسَدُ، فَمَنْ لَمْ يُجَاوِزْهُ إِلَى الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ لَمْ يَتْبَعْهُ مِنْهُ شَيْءٌ»[2].

فيدخل فيه أن نستعيذ الله من شرّ كلّ حاسد إذا حسد، سواء أطلق بحسده العيب فينا، أو حاول أن يسحرنا، أو تآمر علينا، فإن الحاسد يفعل ذلك كله.

بصيرة: يقمع المؤمن سَورة الحسد ويمنعها من الظهور، ويردعها،أما من في قلبه مرض فإنه ينساق معها لتدفعه إلى قصد الإضرار بالمحسود والرغبة في تدميره، فيرتكب لأجل ذلك ما لا يجوز من المشاعر والأفعال، فتبدأ بمشاعر تغيظه على ذي النعمة الذي حسده بسبب تلك النعمة، ثم تزيد قلبه مرضًا، وحقدًا، وتقشِّر قلبه كما يقشِّر الحَسْدَلُ (الحشرة الصغيرة) الجلدَ، فتتحول مشاعر الحقد والكراهية إلى رغبة في تدمير صاحب تلك النعمة.

(١) لم أجد من نسبهما إلى الشافعي في المصادر المعتبرة، ونسبهما في "مرآة الزمان" (١٨/ ٣٢٤) لأبي القاسم التنوخي، وكذلك في النجوم الزاهرة (٤/ ٢٦٤)، وفي تاج التراجم لابن قطلوبغا (ص٢٩٩)، ونسبهما في معجم الأدب للفوطي (٣/ ٥٥٩) إلى هبة الله بن أبي علي البغدادي، المعروف بابن الوكيل.

(٢) الاستذكار (٨/ ٢٩٠).

حِكَم تقييد الاستعاذة من الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾:

ولكنك تلاحظ أن الله ﷻ قيَّد الاستعاذة من الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾، ونتساءل: لماذا هذا التقييد؟

الجواب: هذا التقييد له فوائد نفسية وواقعية مدهشة:

الفائدة الأولى: أن «تقييد الاستعاذة من شره بوقت: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأنه حينئذ يندفع إلى عمل الشر بالمحسود، حين يجيش الحسد في نفسه فتتحرك له الحيل والنوايا لإلحاق الضر به»[(١)]، فلزم الاحتراز منه حينها دفعًا لشره، ودرأً لضرره، وما أشبه ذلك بحال هجوم العدو ولزوم دفعه في أول الأمر لئلا يخلص إليك بالسوء، ويتمكن من إيقاعك، ويستفحل الداء على الدواء.

الفائدة الثانية: ﴿إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ تقرِّر أن الحاسد لا يَظْهَرُ شَرُّه إلا إذا تابع حسده، فأظهره، فيكون معنى الفعل الماضي ﴿حَسَدَ﴾ أي: وقع حسده، فتابع ما يقتضيه، ولم يعالجه أو يمنعه أو يزجر نفسه منه، ولذا قال الزمخشري رحمه الله: «﴿إِذَا حَسَدَ﴾: إذا ظهر حسدُه، وعمل بمقتضاه مِنْ بغي الغوائل للمحسود؛ لأنه إذا لم يُظْهَرْ أثرَ ما أضمره فلا ضرر يعود منه على مَنْ حَسَدَه، بل هو الضارُّ لنفسه لاغتمامه بسرور غيره، وعن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: "لم أر ظالمًا أشبه بالمظلوم من حاسد»[(٢)].

والمراد من الحسد في قوله: ﴿إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ حسد خاص، وهو البالغ أشد حقيقته، فلا إشكال في تقييد الحسد بـ (حَسَدَ)، وذلك كقول عمرو بن معد يكرب:

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٣٠).

(٢) الكشاف (٤/ ٨٢٢).

وبَـدَتْ لـمـيـسُ كـأنَّـهـا ... بـدرُ السَّـمـاء إذا تـبـدَّى[1]

أي: تجلى واضحًا منيرًا[2].

وقد تسأل: ما الحكمة من تقييد الاستعاذة من شر الحاسد إذا حسد، أي عند إيقاعه الحسد بالفعل، ولم يقيدها من شر الساحر إذا سحر؟

الجواب: وذلك -والله تعالى أعلم-: أن النفث في العقد هو عين السحر، فتكون الاستعاذة واقعة موقعها عند سحره الواقع منه بنفثه الحاصل منه في العقد.

أما الحاسد فلم يُستعذ منه إلا عند إيقاعه الحسد بالفعل، أي: عند توجهه إلى المحسود؛ لأنه قبل توجهه إلى المحسود بالحسد لا يتأتى منه شر، فلا محلَّ للاستعاذة منه[3].

> بصيرة: **لأنَّ حسد الحاسد مما يغيب عنك ويخفى على إدراكك، وهو مع ذلك متوقع من أيٍّ كان، وفي أيِّ زمانٍ كان، كان من الاحتياط والعقل دوام التعوذ والتحصن بالله ذي القوة المتين، ولهذا شرعت قراءة المعوذات صباحًا ومساءً.**

ولنا أن نتساءل: لماذا ذكر الله ﷻ هذا الخطر في هذه السورة الختامية في القرآن؟ وبصيغة أخرى: هل الحسد خطر كبير حتى يذكره الله ﷻ ضمن أهم أربعة أخطار تواجه الإنسان المسلم والأمة المسلمة؟

---

(١) البيت منسوب إليه، كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١/ ٥١).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٣٠).

(٣) أضواء البيان، ط: دار الفكر (٩/ ١٦٢).

الجواب: الحسد أساس لتدمير النفس وتدسيتها؛ إذ لو استجاب المرء لنوازع الحسد لقاده إلى مواقعة الجرائر وتقحم الكبائر وظلم العباد والتوصل إليهم بالأذى والعدوان، وهذا الخطر له جهتان:

الجهة الأولى: حسد المؤمن للمؤمن، وهذا يؤدِّي إلى اشتغاله بأخيه، وعدم انصرافه لتزكية نفسه، وعدم الشعور بالأخطار الأخرى حوله، وهذا الحسد يؤدِّي إلى تدمير الأمة المسلمة، لأن أفرادها منشغلون ببعضهم، وتصوَّرْ لو كان ذلك على مستوى القيادات، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ، هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»(١).

وقال بعض الناس لجلسائه: أي الناس أقل غفلة؟ فقال بعضهم: صاحب ليل، إنما همه أن يصبح، فقال: إنه لكذا وليس كذا، وقال بعضهم: المسافر، إنما همه أن يقطع سفره، فقال: إنه لكذا وليس كذا، فقالوا له: فأخبرنا بأقل الناس غفلة، فقال: الحاسد، إنما همه أن ينزع الله ﷻ منك النعمة التي أعطاكها، فلا يغفل أبدًا.

ويروى عن الحسن ؒ أنه قال: «الحسد أسرع في الدِّين من النار في الحطب اليابس»(٢).

---

(١) أحمد (١٤٣٠)، الترمذي (٢٥١٠)، قال: «هَذَا حَدِيثٌ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي رِوَايَتِهِ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، فَرَوَى بَعْضُهُمْ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ يَعِيشَ بْنِ الوَلِيدِ، عَنْ مَوْلَى الزُّبَيْرِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَذْكُرُوا فِيهِ عَنِ الزُّبَيْرِ»، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٨/ ٣٠): «رَوَاهُ الْبَزَّارُ وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ»، وضعف محققو المسند إسناده؛ لجهالة مولى آل الزبير، وحسنه الألباني بمجموع طريقيه عن ابن الزبير وأبي هريرة ﭫ. ينظر: مقدمة سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/ ٢٩).

(٢) الرسائل للجاحظ (٣/ ٤).

إن التحاسد البيني في أوساط المسلمين يستهلك الطاقات، ويؤجج العدوات ويهدر الأوقات، ويعْظُمُ ذلك عندما يكون بين النخب والقيادات العلمية أو الدعوية أو السياسية، وأنت إن تأملت معضلة التفرق والتدابر والتناكر بين فئام من هؤلاء لوجدت مردها إلى التحاسد لا سواه، وإن حاولوا تغليفها -زورًا- بالحرص على الديانة، ومصلحة الدعوة تارة، وبالمزايدة بحب الأوطان وتحقيق مصالحها تارة أخرى.

الجهة الثانية: حسد الكافر الفاجر للمؤمن، فإنه يجعل أهم أهداف حياته تدمير حياة المؤمنين، فقد بلغ بكثير من أحبار أهل الكتاب أن يكفروا بما أنزل الله ﷻ حسدًا للنَّبيِّ ﷺ، وأَكَلَهم الحسدُ حتى صاروا يحبون محبة خالصة أن يقع المسلمون في الكفر: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ثم لا يكتفون بذلك، فصاروا يعملون على إيقاع المسلمين في الكفر، فذكر الله ﷻ تحالفهم النجس مع الوثنيين ضد المؤمنين، وقال عن أسباب ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٢-٥٤].

الحسد دليل وجود النعم الكثيرة والفضائل الأثيرة:

ولكن وجود الحسد يعني أن المحسود على خير عظيم ونعمة كبيرة، فليحمد الله ﷻ على ذلك، وليسعَ إلى أن يطرد شر الحسد بأنواع الذكر ولزوم التعوُّذ.

وكان الأستاذ علي بن محمد وفا رحمه الله يقول: «لا تطلب ألَّا يكون لك حاسد، ولا ألَّا يحسدك حاسد؛ فإن الحكم الوجودي اقتضى مقابلة النعم بالحسد، فمن طلب ألا يكون له حاسد، فقد طلب ألَّا تكون له نعمة، ومن طلب الوقاية من شرِّ الحاسد المتحقِّقِ الحسد، فقد

طلب ظهور النعمة عليه مع الأمان من التشويش فيها، فافهم. فلذلك قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١ - ٥]، وأتى: بـ ﴿إِذَا﴾، ولم يقل: (إن حسد)، فافهم! قال صديق حسن خان رحمه الله معقبًا: قلت:

هُمْ يُحْسُــدون وشَـرُّ الناسِ كُلِّهِم ... مَنْ عاشَ في الناس يومًا غيرَ محسـودِ

اللهمَّ لك الحمدُ على ما جعلتني محسودًا لأعدائي، ولم تجعلْني حاسدًا، فقِني شرَّ ما قضيت، فإنك تقضي ولا يُقضى عليك»[(١)].

ولذا أشار الحكماء إلى النعمة العظمى التي يعيش فيها المحسود، فقال أبو الْأَسْوَدِ:

حَسَــدُوا الْفَتَى أَنْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ ... فَالْقَوْمُ أَعْدَاءٌ لَهُ وَخُصُومُ

كَضَرَائِرِ الْحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا ... حَسَدًا وَبُغْضًا إِنَّهُ لَدَمِيمُ[(٢)]

وقال بَشَّار بْن بُرْدٍ:

إِنْ يَحْسُدُونِي فَإِنِّي غَيْرُ لَائِمِهِمْ ... قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا

فَدَامَ لِيَ وَلَهُمْ مَا بِي وَمَا بِهِمُ ... وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غَيْظًا بِمَا يَجِدُ[(٣)]

وقال البحتري:

محسَّـدون كأن المكرماتِ أبتْ ... أن توجدَ الدهرَ إلّا عند محسودِ

محسَّـدونَ وشـرُّ الناسِ منزلةً ... من عاش في الناس يومًا غيرَ محسودِ[(٤)]

---

(١) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (ص: ٣٠٩).

(٢) ينظر: وفي شرح أبيات المغني (٦/ ١١٣)، حاشية الجمل على شرح المنهج (٤/ ٤٥٩).

(٣) والبيتان بغير نسبة، كما في العقد الفريد (٢/ ١٧٤)، ونسبهما ابن عاشور إلى بشار بن برد. التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٣٠).

(٤) ديوان المعاني، أبو هلال العسكري (ص: ١٣).

وهذا نصر بن سيار يدعو بأن يكثر الله حسَّاده:

إني نشأتُ وحُسَّادي ذوو عددٍ … يا ذا المعارجِ لا تُنْقِصْ لهمْ عددَا

إنْ يحسدوني على ما بي لمَا بهمُ … فمثل ما بي مما يجلبُ الحَسَدَا

وأنشد معن بن زائدة مثله فقال:

إني حُسِدتُ فزادَ الله في حسدي … لا عاشَ منْ عاشَ يومًا غيرَ محسودِ(١)

وهنا نسأل عن قول ربنا -جلَّ مجدُه-: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾، فماذا يكون شر الحاسد؛ إن كان حسده شيئًا نفسيًّا؟

الجواب: يدخل في شر الحاسد ما يأتي:

أولًا: عين الحاسد، فقد تؤثِّر عينه على المحسود، والعين حق، وقد تكون من حاسد، وقد تكون من مبغض، وقد تكون من محبٍّ، وقال عنها النبي ﷺ: «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا»(٢).

إن الحسد في صدر الحاسد يغلي، حتى يخرج من شروره شيء مبهم يؤذي من لم يكن مُحَصَّنًا.

وجاءت النصوص النبوية تكشف لنا هذا الأثر الخطير للعين، فعن جابر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «أكثرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أمتي بعد كتاب الله ﷻ وقضائه وقَدَرِه بالأَنْفُس [يعني بالعين]» (٣)، ولما رأى عامرُ بنُ ربيعة سهلَ بنَ حنيف جمال جلده وهو يغتسل، فسقط سهل

---

(١) الشكوى والعتاب، الثعالبي (ص: ٩٨).

(٢) مسلم (٢١٨٨).

(٣) السُّنة لابن أبي عاصم (٣١١)، وقال الألباني في ظلال الجنة: "إسناده حسن، رجاله ثقات".

من فوره، فقال النبي ﷺ لعامر بن ربيعة: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟! هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَّكْتَ؟»، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «اغْتَسِلْ لَهُ»، فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، وَمِرْفَقَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ، وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صُبَّ ذَلِكَ الْمَاءُ عَلَيْهِ، يَصُبُّهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِهِ وَظَهْرِهِ مِنْ خَلْفِهِ، يُكْفِئُ الْقَدَحَ وَرَاءَهُ، فَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، فَرَاحَ سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ، لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ(١).

وفي رواية: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَاهُ أبا أمامة، يَقُولُ: اغْتَسَلَ أَبِي، سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، بِالْخَرَّارِ فَنَزَعَ جُبَّةً كَانَتْ عَلَيْهِ، وَعَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ يَنْظُرُ، قَالَ: وَكَانَ سَهْلٌ رَجُلًا أَبْيَضَ حَسَنَ الْجِلْدِ، قَالَ: فَقَالَ عَامِرٌ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ عَذْرَاءَ، فَوُعِكَ سَهْلٌ مَكَانَهُ، وَاشْتَدَّ وَعْكُهُ ...فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ أَلَّا بَرَّكْتَ، إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، تَوَضَّأْ لَهُ»(٢).

وقال ﷺ لأسماء بنت عميس رضي الله عنها: «مَا لِي أَرَى أَجْسَامَ بَنِي أَخِي ضَارِعَةً [أي: نحيفة] تُصِيبُهُمُ الْحَاجَةُ؟! قَالَتْ: لَا، وَلَكِنِ الْعَيْنُ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ. قَالَ: «ارْقِيهِمْ». قَالَتْ: فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «ارْقِيهِمْ»(٣)، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «إِنَّ الْعَيْنَ لَتُولَعُ الرَّجُلَ بِإِذْنِ اللهِ، حَتَّى يَصْعَدَ حَالِقًا [الجبل] ثُمَّ يَتَرَدَّى مِنْهُ»(٤).

وقد جمعت الرقية الملائكية المباركة بين التحصن من مجموعة من الشرور، وذلك في الحديث الذي روته عَائِشَة رضي الله عنها زَوْج النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: كَانَ إِذَا اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ رَقَاهُ

---

(١) أحمد (١٥٩٨٠)، وصححه محققو المسند، والألباني في صحيح الجامع (٤٥٦٢).

(٢) الموطأ- رواية الزهري (١٩٧٢)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٦٠٧٣).

(٣) مسلم (٢١٩٨).

(٤) أحمد (٢١٣٠٢)، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٨٩)، وذكر له شاهدًا.

جِبْرِيلُ عليه السلام، قَالَ: «بِاسْمِ اللهِ يُبْرِيكَ، وَمِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وَشَرِّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ»[(١)].

وهنا قد يتساءل بعضنا: هل يمكن أن يصدر من الحاسد شيء غامض يؤذي مثل هذين الشيئين: العين، وغليان الحسد في صدره؟ أليس هذا الكلام أوهامًا وخيالات؟

الجواب:

الأثر الغامض للحسد من أسرار النفس البشرية، وما أكثر ما نرى في حياتنا أمورًا لا نستطيع تفسيرها بيسر أو لم نصل بعد إلى تفسيرها مثل التخاطر عن بعد؛ إذ يتواصل اثنان وهما في جهتين متباعدتين، ومثل ذلك التنويم المغناطيسي، وكذلك يمكن أن نقول عن الحسد، فالحسد قوة أو هو انفعال يوجد قوة ما تؤثر على المحسود بشدة، ولا يوجد عندنا في الوقت الحاضر معلومات واضحة عن كيفية حدوث ذلك، لكننا نعلم وجودها وأثرها، ونستعيذ بالله رب الفلق منها، فهو قوة كأنها انفلقت من شيء انفعالي عاطفي، فهاجت وأثرت، وقانا الله شرور الإنس والجن.

ثانيًا: الجرأة على ارتكاب الذنوب: فالحاسد حاقد حتى يجرئه هذا على ارتكاب الذنوب، والجرائم العظائم لشدة حقده على المحسود، ومن نوابغ الكلم: "الحسدُ حَسَكٌ[(٢)]، من تعلق به هلك"[(٣)].

---

(١) مسلم (٢١٨٥).

(٢) نَبَات لَهُ ثَمَرَة خشنة تعلق بأصواف الْغنم، وقيل: عشبة تضرب إِلَى الصُّفْرَة وَلها شوك. المحكم لابن سيده (٣/ ٣٤).

(٣) الشكوى والعتاب، الثعالبي (ص: ٩٨).

ثالثًا: إثمه وسماجة حاله في وقت حسده، وإظهاره أثره [١]، وذكر ابن القيم رحمه الله موضحًا تأثير نفس العائن الخبيثة خصوصًا حالة الغضب: «وهذه العينُ إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة، وهي في ذلك بمنزلة الحية التي إنما يؤثر سمُّها إذا غضِبَت واحتدَّت، فإنها تتكيَّفُ بكيفيَّة الغضب والخبث فتُحدِثُ فيها تلك الكيفيةُ السُّمَّ فتؤثر في الملسوع، وربما قَوِيَتْ تلك الكيفيةُ واشتدَّتْ في نوعٍ منها حتى تُؤَثِّرَ بمجرد نظرة فتطمسُ البصرَ وتُسقطُ الحَبَلَ، كما ذكره النبي ﷺ في الأبتر وذي الطُّفْيَتَيْن منها، وقال: «اقْتُلُوهُمَا، فإنَّهُما يَطْمِسَانِ البَصَرَ ويُسْقِطَانِ الحَبَلَ»[٢].

فإذا كان هذا في الحيَّات، فما الظَّنُّ في النفوس الشِّريرة الغَضَبِيَّة الحاسدة إذا تكيَّفت بكيفيَّتِها الغضبيَّة وانسمَّت وتوجَّهت إلى المحسود بكيفيَّتها؟! فللهِ كم من قتيل؟! وكم من سَلِيب؟! وكم من معافىً عاد مُضنىً على فراشه يقول طبيبُه: لا أعلمُ داءَه ما هو؟! فصدقَ!! ليس هذا الدَّاءُ من علم الطبائع، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها ومعرفة تأثيراتها في الأجسام والطبائع وانفعال الأجسام عنها»[٣].

وقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ في بيان حال الحاسد وأثره: بَارَزَ الْحَاسِدُ رَبَّهُ مِنْ خَمْسَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ أَبْغَضَ كُلَّ نِعْمَةٍ ظَهَرَتْ عَلَى غَيْرِهِ.

وَثَانِيهَا: أَنَّهُ سَاخِطٌ لِقِسْمَةِ رَبِّهِ ﷻ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لِمَ قَسَمْتَ هَذِهِ الْقِسْمَةَ؟

وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ ضَادَّ فِعْلَ اللهِ ﷻ، أَيْ إِنَّ فَضْلَ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ يَبْخَلُ بِفَضْلِ اللهِ ﷻ.

وَرَابِعُهَا: أَنَّهُ خَذَلَ أَوْلِيَاءَ اللهِ ﷻ، أَوْ يُرِيدُ خِذْلَانَهُمْ وَزَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْهُمْ.

---

(١) الكشاف (٤/ ٨٢٢).

(٢) البخاري (٣٢٩٧) بنحوه.

(٣) الفوائد (٢/ ٧٤٩، ٧٥٠).

وَخَامِسُهَا: أَنَّهُ أَعَانَ عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ.

وَقِيلَ: الْحَاسِدُ لَا يَنَالُ فِي الْمَجَالِسِ إِلَّا نَدَامَةً، وَلَا يَنَالُ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا لَعْنَةً وَبَغْضَاءَ، وَلَا يَنَالُ فِي الْخَلْوَةِ إِلَّا جَزَعًا وَغَمًّا، وَلَا يَنَالُ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا حُزْنًا وَاحْتِرَاقًا، وَلَا يَنَالُ مِنَ اللهِ ﷻ إِلَّا بُعْدًا وَمَقْتًا»[١].

وقد ذكر ابن عبد البر رحمه الله أن سليمان بن يسار روى عن عراك بن مالك وهما تابعيان نظيران، وعراك أسن من سليمان رحمهما الله، ثم قال: وما زال العلماء قديمًا يأخذ بعضهم عن بعض، ويأخذ الكبير عن الصغير، والنظير عن النظير، ونفخ الشيطان في أنوف كثير من أهل عصرنا ببلدنا فأعجبوا بما عندهم، وقنعوا بيسير ما علموا، ونصبوا الحرب لأهل العناية، وأبدوا له الشحناء والعداوة حسدًا وبغيًا، وقديمًا كان في الناس الحسد، ولقد كان ذلك فيما روي من إبليس لآدم عليه السلام، ومن ابني آدم بعضهما لبعض، ولقد أحسن سابق رحمه الله، حيث يقول:

جَنَى الضَّغَائِنَ آبَاءٌ لَنَا سَلَفُوا ... فَلَنْ تَبِيدَ وَلِلْآبَاءِ أَبْنَاءُ[٢]

وهنا يأتي سؤال عن العائن فما الفرق بينه وبين الحاسد؟

الجواب:

العين حق كما هو معلوم، فعَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ الزُّرَقِيِّ رحمه الله، قَالَ: قَالَتْ أَسْمَاءُ رضي الله عنها: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ بَنِي جَعْفَرٍ تُصِيبُهُمُ الْعَيْنُ، أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ؟ قَالَ: «نَعَمْ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقُ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ»[٣]، وقال ﷺ: «العينُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ القَبْرَ، والجَمَلَ القِدْرَ»[٤]، وذكر بعض المفسرين

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٥٩).

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٧ / ١٢٤).

(٣) أحمد (٢٧٤٧٠)، وقال محققو المسند: حسن، والحديث عند مسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

(٤) حلية الأولياء (٧/ ٩٠)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٢٤٩).

في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١] أن المقصود أن يصيبوه بأعينهم[١]، فنقل ابن قتيبة عن الفراء ﷺ: "يَعْتانونك أي: يصيبونك بأعينهم"؛ وذكر: "أن الرجل من العرب كان يَمْثُلُ على طريق الإبل -إذا صَدَرَتْ عن الماء- فيُصيبُ منها ما أراد بعينه، حتى يُهلِكَه"، وعقَّب ابن قتيبة ﷺ: ولم يُرِدِ الله جلَّ وعزَّ -في هذا الموضع- أنهم يصيبونك بأعينهم، كما يُصيبُ العائن بعينه ما يَسْتَحْسِنُه ويَعجَب منه.

وإنما أراد: أنهم ينظرون إليك -إذا قرأتَ القرآن- نظرًا شديدًا بالعداوة والبغضاء، يكاد يُزلِقك، أي: يُسقطك. كما قال الشاعر:

يَتَقَارَضُون -إذا الْتَقَوْا في مَوْطِنٍ- نظَرًا يُزِيلُ مَوَاطِئَ الأقْدَامِ[٢]

العائن والحاسد يشتركان في شيء ويفترقان في شيء آخر، فيشتركان في أن كلَّ منهما تتكيَّف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه؛ فالعائن تتكيَّف نفسه عند مقابلة المَعين ومعاينته، والحاسد يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضًا[٣]، إلا أن بينهما الفروق الآتية:

١) العائن يؤذي إن رأى، والحاسد يؤذي المحسود سواء رآه أم لا.

٢) العائن يؤذي من يراه ولو لم يكن يقصد الأذى له، بينما لا يؤذي الحاسد إلا من قصد له الأذى.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٥٦٤).

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة (ص٤٨٢)، وانظر: البيان والتبيين (١/ ٣٤)، وذكر المعنيين الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٦٤).

(٣) ينظر: تفسير المعوذتين لابن القيم (ص: ٣٥).

٣) العائن يؤذي الإنسان وغير الإنسان بمجرد النظر بحدَّة معينة، فقد يسبِّب تلف المال، أو إصابة جماد، أو إيلام إنسان، والحاسد يؤذي المحسود من بني الإنسان، ويترتب عليه أنه قد يؤذي مالَه وغيرَ ذلك من متعلَّقاته.

٤) العائن يؤذي بالرؤية لا بكيد آخر، بينما الحاسد يؤذي بما تتملكه نفسه من ضغينة، وقد يؤذي بكيد يقوم به من عند نفسه.

٥) العائن معجب أو حاسد، وقد يصيب نفسه، وقد يصيب من يحبه، فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر في المعين، أما الحاسد فهو مبغض يقصد بالأذى من يحسده.

٦) العائن لا يعين إلا الشيء الموجود، والحاسد في الأمر المتوقع قبل وقوعه.

٧) مصدر العين انقداح نظرة العين، ومصدر الحسد تحرُّق القلب واستكثار النعمة على المحسود[1].

وقد يأتي سؤال تدبري عن اقتران ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾بـ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ في السورة؟

الجواب: لأن الأنفس الشريرة النفاثات في العقد لا بد أن تستعين بالجن لإكمال الشرور، فالاستعاذة منها استعاذة من الجن -أيضًا-، والحاسد شرٌّ إنسيٌّ انطوت عليه نفس الحاسد، فالاستعاذة منه استعاذة من شرور الإنس، فجمعت الآيتان الاستعاذة من شرور الإنس، والجن.

«والشيطان يقارنُ الساحر والحاسد ويحادثهما ويصاحبهما، ولكنَّ الحاسدَ تُعِينُهُ الشياطينُ بلا استدعاء منه للشيطان؛ لأن الحاسد شبيهٌ بإبليس وهو في الحقيقة من أتباعه؛ لأنه يطلبُ

(١) ينظر: أضواء البيان، ط: دار الفكر (٩/ ١٦٤).

ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله ﷻ عنهم، كما أن إبليس حسد آدم عليه السلام لشَرَفه وفضله، وأبى أن يسجدَ له حَسَدًا، فالحاسد من جند إبليس، وأما الساحرُ فهو يطلبُ من الشيطان أن يُعِينَهُ ويستعينه، وربما يعبدُهُ من دون الله تعالى حتى يقضيَ له حاجَتَهُ، وربما يسجد له»[١].

وربما تسأل: ما الحكمة من إطلاق الحسد دون ذكر المحسود عليه؟

الجواب: ليعم بذلك كل النعم سواء أكانت نعمة موجودة، أو نعمة متوقع وجودها، وقد نبه القرآن الكريم على أعظم النعمة التي حُسِد عليها المسلمون عامة والرسول ﷺ خاصة، وهي نعمة الإسلام ونعمة الوحي وتحصيل الغنائم.

فأهل الكتاب حسدوا المسلمين على الإسلام في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، والمشركون حسدوا رسول الله ﷺ على نعمة الوحي إليه، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

ومما جاء فيه الحسد عن نعمة متوقعة: قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [الفتح: ١٥][٢].

وقد تسأل: ما الأسباب التي تحمل على الحسد؟

الجواب: بالتأمل في قصة إبليس مع آدم عليه السلام ورفضه السجود له، يتبين أن الحامل على الحسد أصله أمران:

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٥٨).

(٢) ينظر: أضواء البيان، ط: دار الفكر (٩/ ١٦٣، ١٦٤).

الأول: ازدراء المحسود.

والثاني: إعجاب الحاسد بنفسه، ويلحق بذلك جميع الأسباب.

وقد ذكروا منها:

١) العداوة والبغضاء، وهذا أشد أسباب الحسد فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب، وخالفه في غرض بوجه من الوجوه، أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفي والانتقام.

٢) التعزز في نفسه، ولا يريد لأحد أن يرتفع عليه.

٣) التعجب، بأن يعجب بنفسه، ولا يرى أحدًا أولى منه.

٤) الخوف من فوت المقاصد عند شخص إذا رآه سيستغني عنه.

٥) حب الرئاسة ممن لا يريد لأحد أن يتقدم عليه في أي فن أو مجال.

٦) خبث النفس وشُحُّها بالخير لعباد الله تعالى، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به فهو أبدًا يحب الإدبار لغيره.

وذكرها الرازي نقلًا عن الغزالي رحمهما الله[1].

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/ ١٩٢-١٩٤)، تفسير الرازي (٣/ ٦٤٧، ٦٤٨)، أضواء البيان، ط: دار الفكر (٩/ ١٦٥).

سبل الوقاية من شر الحسود

- سبب (١): التَّعَوُّذ بالله تعالى من شرِّه
- سبب (٢): تقوى الله عز وجل وحفظه عند أمرِه ونهيه
- سبب (٣): الصَّبْر على عدوه، فلا يشكوه، ولا يحدِّثُ نفسَه بأذاه
- سبب (٤): التوكل على الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]
- سبب (٥): فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه
- سبب (٦): الإقبالُ على الله عز وجل، والإخلاصُ له
- سبب (٧): تجريد التوبة إلى الله عز وجل من الذنوب التي سَلَّطت عليه أعداءَه
- سبب (٨): الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإنَّ لذلك تأثيرًا عجيبًا في دَفْع البلاء، ودفع العين، وشرِّ الحاسد
- سبب (٩): إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه
- سبب (١٠): تجريدُ التوحيد والتَّرَحُّل بالفكر في الأسباب إلى المسبِّب العزيز الحكيم

سبل الوقاية من شر الحسود:

وهنا نسأل: كيف يندفع شر الحاسد عن المحسود؟

الجواب: يندفع شرُّ الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب(١):

السبب الأول: التَّعَوُّذ بالله تعالى من شرِّه، والتَّحصُّن به، واللَّجَأ إليه، وهو المقصود بهذه السورة، والله تعالى سميع لاستعاذته، عليمٌ بما يستعيذُ منه، والسمعُ المرادُ به سمع الإجابة لا السمع العام.

> **بصيرة: تأمَّلْ حكمة القرآن الكريم كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلمُ وجوده ولا نراه باسمَيِ الله: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في (الأعراف) و(فصلت)، وجاءت الاستعاذةُ من شرِّ الإنس الذين يؤنَسُون ويُرَوْن بالأبصار باسمَيِ الله: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ في سورة (غافر) فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]؛ لأن أفعال هؤلاء أفعال مُعَايَنة تُرَى بالبصر.**

السبب الثاني: تقوى الله ﷻ وحفظه عند أمرِه ونهيه، فمن اتقى الله ﷻ تولَّى الله ﷻ حفظه، ولم يَكِلْهُ إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»(٢)، وبهذا يتقرر أنَّ تضرر الحاسد بالحسد كما هو دليل على وفور النعمة لدى المحسود من وجه فإنه دليل على انقطاع أو ضعف صلته بمولاه وحاميه، حتى صار مكشوفًا لخصومه وأعاديه،

(١) هذا الفصل ملخص من: بدائع الفوائد (٢/ ٧٦٤).

(٢) أحمد (٢٦٦٩)، الترمذي (٢٥١٦)، وقال: "حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ"، وصححه الإشبيلي في الأحكام الكبرى (٣/ ٣٣٤).

وهدفًا لمبغضيه وحاسديه، ومتخليًّا عن حصنه وسلبه الذي يحفظه ويقيه، و«تالله ما عدا عليك العدوُّ إلا بعد أن تولى عنك الوليُّ فلا تظنَّ أنَّ الشيطان غلب، ولكن الحافظ أعرض»[1].

السبب الثالث: الصَّبْر على عدوه، فلا يشكوه، ولا يحدِّثُ نفسَه بأذاه، فبغيه سهامٌ يرميها من نفسه إلى نفسه، ولو رأى المبغيُّ عليه ذلك لسَرَّه بغيُهُ عليه، ولكن لضعفِ بصيرته لا يرى إلا صورةَ البغي دون آخره ومآله، وقد قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: ٦٠]، فإذا كان اللهُ ﷻ قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقَّهُ أولًا، فكيف بمن لم يستوفِ شيئًا من حقِّه؟ بل بُغِيَ عليه وهو صابر.

السبب الرابع: التوكل على الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفعُ بها العبد ما لا يُطيقُ من أذى الخلق وظلمهم وعدْوانهم.

السبب الخامس: تفريغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، فإذا جَبَذَ روحَه عنه، وصانها عن الفكر فيه والتَّعَلُّق به، وأن يُخْطِره بباله، واشتغل بما هو أنفعُ له وأولى به، بقي الحاسد الباغي يأكُلُ بعضُه بعضًا، فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجدْ ما تأكلُهُ أكَلَ بعضُها بعضًا، وهذا من قوة النفس، وتنزهها عن الاشتغال بالحُسَّاد وذوي الأحقاد.

وما أجمل ما قاله د. سعيد بن دحباج –وفقه الله–:

مَا كنتُ أحسبُ أني صرتُ في هَدَفٍ ... للشانئينَ وأهلِ الريبِ والحَسَدِ
وانني قدْ سَلَبْتُ النومَ أعينهمْ ... وصِرْتُ كالنارِ شَبَّتْ في رحى الوَقَدِ
وصرتُ فيهمْ حديثًا يُسْتَعَادُ لِمَنْ ... رَامَ السُّلُوَّ عَنِ الأحزانِ والنكَدِ

---

(١) الفوائد، ابن القيم (ص: ٩٧).

يُرَجِّعُونَ حُرُوفِي حِينَ أَلْفِظُهَا — يُخَالِفُونَ بِهَا عَنْ مَسْلَكِ الرَّشَدِ
سَلَوتُ عنهمْ فذِكْرِي لا يفارِقُهُم — ذِكْرِي لِخَيمَتِهِمْ قَدْ صَارَ كَالوَتَدِ
يُزَوِّرُونَ رَكِيكَ القولِ إنْ وَجَدُوا — كَذَا الثعالبُ تُحْصِي زَلَّةَ الأَسَدِ
نسيتهمْ فأَنَا عَنْ شَأْنِهِمْ وَلِهٌ — وَهُمْ بِشَأْنِي قَدْ شُغِلُوا وَمُعْتَقَدِي(١)

السبب السادس: وهذا مما يعين على التحقق بالذي قبله، وهو الإقبالُ على الله ﷻ، والإخلاصُ له، وجعلُ محبَّتِه وتَرَضِّيه والإنابة إليه في محلِّ خواطر نفسه وأمانيها، قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣] قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ - ١٠٠]، وقال في حق الصديق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. فما أعظمَ سعادةَ مَنْ دخل هذا الحِصْنَ، وتحصَّن به.

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله ﷻ من الذنوب التي سَلَّطت عليه أعداءَه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال لخير الخلق - وهم أصحاب نبيه ﷺ - دونه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإنَّ لذلك تأثيرًا عجيبًا في دَفْع البلاء، ودفع العين، وشرِّ الحاسد.

(١) ديوان (عتب القوافي)، د. سعيد بن دحباج (ص: ٢٦).

فالمحسنُ المُتَصَدِّقُ يستخدمُ جُنْدًا وعَسْكرًا يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه، فمن لم يكن له جندٌ ولا عسكرٌ وله عدوٌّ فإنه يوشِكُ أن يَظْفَرَ به عدُوُّه، وإن تأخرت مدَّةُ الظَّفَرِ، والله المستعان.

السبب التاسع: إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذىً وشرًّا وبغيًا وحسدًا ازددتَ إليه إحسانًا وله نَصِيحةً وعليه شفقة، وهذا من أصعب الأسباب على النفس، وأَشَقِّها عليها، ولا يوفَّقُ له إلا من عَظُمَ حظُّه من الله ﷻ، وما أظنُّك تصدِّق بأن هذا يكون: فضلًا عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قولَه ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦].

ويظهر لي أن هذا السبب لا بد أن يجتمع به إظهار المصارحة للحاسد بصورة متلطِّفةٍ مُحِبَّةٍ للخير بأنه يرتكب إثمًا عظيمًا، ويمكِّن الشيطان من نفسه في كبيرة من الكبائر.

وتأمَّلْ حال أحد الأنبياء ◻ الذي حكى عنه نبينا ﷺ أن قومه ضربوه حتى أَدْمَوْه، فجعل يسلُتُ الدَّمَ عنه، ويقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فإنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»[١]، كيف جمع في هذه الكلمات أربعَ مقاماتٍ من الإحسان، قابَلَ بها إساءَتهم العظيمةَ إليه:

أحدها: عفوه عنهم.

والثاني: استغفاره لهم.

الثالث: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون.

---

(١) البخاري (٣٤٧٧).

الرابع: استعطافه لهم بإضافتهم إليه، فقال: «اغْفِرْ لِقَوْمِي»، كما يقولُ الرجلُ لمن يشفعُ عندَهُ فيمن يَتَّصِلُ به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي فَهَبْهُ لي.

السبب العاشر: -وهو الجامعُ لذلك كُلِّه وعليه مدارُ هذه الأسباب- وهو: تجريدُ التوحيد والتَّرَحُّل بالفكر في الأسباب إلى المسبِّب العزيز الحكيم، والعلم بأن هذه آلاتٌ بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محرِّكها وفاطرها وبارئها، ولا تضرُّ ولا تنفعُ إلا بإذنه، فهو الذي يمسُّ عبدَه بها، وهو الذي يصرفُها عنه وحدَه لا أحد سواه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «واعلمْ أنَّ الأمَّةَ لو اجتمعوا على أنْ يَنْفَعُوك لم يَنْفَعُوك إلا بشيءٍ كَتَبَهُ اللهُ لك، ولو اجْتَمَعُوا على أن يَضرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بشيءٍ كَتَبه اللهُ عَلَيْكَ»(١).

فإن سألت كيف أتوقى سهام العين أن تتوجه إلي ابتداء؟

فالجواب: أن مما تُستَدرأ به سهام الحسد وتُصرفُ مجانبة التظاهر بالنعمة أمام من يُظنُّ حسده ويتوقع شره؛ ذلك أن مما يقوي دواعي الحسد لديه اطلاعه من المحسود على ما يثير حفيظته ويغلي نار بغضه وحقده ويشعل كامن شره، وقد أخبرنا الله عن يعقوب عليه السلام أنه قال: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ [يوسف: ٦٧]، قال ابن كثير رحمه الله: «إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر، ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم»(٢).

---

(١) أحمد (٢٦٦٩)، الترمذي (٢٥١٦)، وقال: "حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ"، وصححه الإشبيلي في الأحكام الكبرى (٣/ ٣٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٠).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَعِينُوا عَلَى الحوائج بكتمان السر فَإِنَّ لِكُلِّ نِعْمَةٍ حَاسِدًا»(١).

ولذلك تجد التحاسد إنما يشيع بين المتعارفين الذين يطلع كل منهم على ما عند الآخر، أما من جُهل حاله وخفي أمره فلا يتصور أن يقصده أحد بحسد، لا في مال ولا جسد، ولما "قيل لبعضهم: ما بال فلان يبغضك؟ قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة، فذكر جميع دواعي الحسد"(٢).

فإن سألت: كيف يداوي الحاسد نفسَه؟ وكيف يمكنه التخلص من هذا الداء العضال؟

الجواب: ذكروا أن للحسد دواءً يداوي به الحاسدُ نفسَه ليستريح من عناء الحسد المتوقِّد في قلبه المنغص عليه عيشه.

وهو على سبيل الإجمال في أمرين: **العلم ثم العمل**.

والمراد بالعلم هو أن يعلم يقينًا أن النعمة التي يراها على المحسود، إنما هي عطاء من الله ﷻ بقَدَر سابق وقضاء لازم، وأن حسده إيَّاه عليها لا يغيِّر من ذلك شيئًا، ويعلم أن ضرر الحسد يعود على الحاسد -وحده- في دينه لعدم رضائه بقدر الله وقسمته لعباده؛ لأنه في حسده كالمعترض على قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وفي دنياه لأنه يورث السِّقام والأحزان والكآبة ونفرة الناس منه ومقتهم إيَّاه، ومن وراء هذا وذاك العقاب في الآخرة.

---

(١) أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء (ص: ١٨٧)، ونقل عن أبي حاتم قوله: "هذا إسناد حسن، وطريق غريب"، وجوَّد الألباني إسناده في الصحيحة (١٤٥٣).

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف (ص: ٢٢١).

أما العمل فهو مجاهدة نفسه ضد نوازع الحسد، فإذا رأى ذا نعمة فازدرته عينه، فليحاول أن يُقَدِّرَهُ ويخدمَه، وإن راودته نفسه بالإعجاب بنفسه، ردها إلى التواضع وإظهار العجز والافتقار.

وإن سولَّت له نفسه تمنِّي زوال النعمة عن غيره، صَرَفَ ذلك إلى تمنِّي مثلها لنفسه، وفضل الله عظيم.

وإن دعاه الحسد إلى الإساءة إلى المحسود، سعى إلى الإحسان إليه، وهكذا فيَسْلَم من شدة الحسد، ويَسْلَم غيرُه من شرِّه، وكما في الأثر: «المؤمنُ يَغْبِطُ، والمنافقُ يَحْسُدُ»[1].

(١) أضواء البيان، ط: دار الفكر (٩/ ١٦٩، ١٧٠)، والأثر أورده ابن أبي الدنيا (ص: ٢٧٠) بصيغة التمريض مرفوعًا، والصحيح أنه من قول الفضيل بن عياض، قال العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (ص: ١٠٨٨): "لم أجد لَهُ أصلا مَرْفُوعًا، وَإِنَّمَا هُوَ من قَول الفضيل بن عِيَاض، كَذَلِك رَوَاهُ ابْن أبي الدُّنْيَا فِي ذمّ الْحَسَد".

الإحكام المدهش في الترتيب المحكم للشرور الأربعة

[1] بدأ بالاستعاذة من شر الخلق عمومًا

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: 2].

[2] ثم انتقل إلى زمانٍ مخصوص غامض يكثر فيه الشر

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: 3].

[3] ثم انتقل إلى مخلوقين مخصوصين يفعلون فعلًا مخصوصًا غامضًا خفيًّا يحدث منهم الشر

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: 4].

[4] ثم انتقل إلى شر أشد خفاء

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: 5]. لأن الحسد عملٌ نفسيٌّ وأثرٌ قلبيٌّ.

«ومن أُعِيذَ من هذه المذكورات انفلق سماء قلبه عن شمس المعرفة بعد ظلام ليل الجهل، فأشرقت أرجاؤه بأنوار الحِكَم، إلى أن يضيق الوصف له عن بدائع الكشف» كما يقول البقاعي رحمه الله.

الإحكام المدهش في الترتيب المحكم للشرور الأربعة:

وهنا يأتي السؤال: الشر الأول المستعاذ منه ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ **يعمُّ كلَّ شر، فما الحكمة من تخصيص هذه الشرور الثلاثة:** ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، و﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، و﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ **بالذكر مع أنها تدخل في الشر الأول الأكبر؟**

الجواب: خصَّ الله ﷻ هذه الشرور الثلاثة بالذكر من بين سائر الشرور لغموضها الشديد، وخفاء أمرها، ولأنها تلحق الإنسان من حيث لا يُعْلَمُ، كأنما يغتال بها، وقالوا: شر العُدَاةِ: المُدَاجِي الذي يكيدك من حيث لا تشعر[(١)]، وليس لأنها أعظم الشرور كما قال الرازي رحمه الله[(٢)].

وانظر لترتيب الأمور المستعاذ منها:

بدأ بالشرور عمومًا ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢].

ثم انتقل إلى زمانٍ مخصوص غامض يكثر فيه الشر ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣].

ثم انتقل إلى مخلوقين مخصوصين يفعلون فعلًا مخصوصًا غامضًا خفيًّا يحدث منهم الشر ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤].

ثم انتقل إلى شر أشد خفاء ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]، لأن الحسد عملٌ نفسيٌّ وأثرٌ قلبيٌّ، وقد قيل فيه: إنه كإشعاع غير مرئي، ينتقل من قلب الحاسد إلى المحسود، عند تحرقه بقلبه على المحسود[(٣)]

---

(١) الكشاف (٤/ ٨٢٢).

(٢) تفسير الرازي (٣٢/ ٣٧٥)، والمداجي: الذي يساتر، وهو مأخوذ من دجى الليل. ينظر: اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي (ص١٤٦٠).

(٣) أضواء البيان، ط: دار الفكر (٩/ ١٦٢).

ويشير ابن تيمية ﵀ و إلى مأخذ ترتيب هذه الشرور الخطيرة التي تدمر حياة الأفراد والأُسَر والمجتمعات، فيقول: «ذكر سبحانه الاستعاذة من شر الخلق عمومًا، ثم خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب وهو الزمان الذي يعم شرُّه، ثم خصَّ بالذكر السِّحر والحسد؛ فالسِّحر يكون من الأنفس الخبيثة لكن بالاستعانة بالأشياء كالنفث في العُقَد. والحسد يكون من الأنفس الخبيثة أيضًا؛ إما بالعين، وإما بالظلم باللسان واليد، وخصَّ من السِّحر النَّفاثات في العُقَد وهُنَّ النساء»[1].

ويشعر البقاعي ﵀ بالكنوز الهائلة العظيمة التي يجدها من يحميه الله ﷻ من شر هذا الأخطار الأربعة، فيقول: «ومن أُعِيذَ من هذه المذكورات انفلق سماء قلبه عن شمس المعرفة بعد ظلام ليل الجهل، فأشرقت أرجاؤه بأنوار الحِكَم، إلى أن يضيق الوصف له عن بدائع الكشف:

هناك ترى ما يَمْلأُ العينَ قُرَّةً ويُسْلِي عنِ الأوطانِ كلَّ غَريبِ[2]

فينقطع التعلق عما سوى الله ﷻ بمحض الاتباع والبعد عن الابتداع بمقتضى ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]»[3].

ونسأل سؤالًا آخر: لِمَ عرَّف بعض المستعاذ منه ونكَّر بعضه؟

الجواب: عُرِّفت ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾؛ لأن كلَّ نفَّاثةٍ شريرةٌ، وللإشارة إلى أنه حقيقة معلومة للسامع، وإلى أنهن معهودات بين العرب، ونكَّر ﴿غَاسِقٍ﴾؛ لأنَّ ما كل غاسق يكون فيه الشر،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٧).

(٢) كذا في نظم الدرر (٢٢/ ٤١٤)، والبيت للحريري في مقاماته (ص: ٥٢٤)، وفيها: (رأيتُ بها ما يمْلأ) بدلًا من (هناك ترى ما يَمْلَأُ)، وفي بعض المصادر بلفظ (وجدت بها). ينظر: شرح لامية العجم للدميري (ص: ٢٧).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤١٤).

إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضرُّ، ورُبَّ حَسَدٍ محمود، وهو الحسد في الخيرات، ومنه قوله ﷺ: «لا حَسَدَ إلا في اثنتين»[1]، وكقول أبي تمام:

هُمُ حَسَدُهُ -لا مَلُومِينَ- مجدَهُ وما حاسدٌ في المَكْرُماتِ بحاسدِ[2]

أي: إني جامع للخصال الجميلة، والذي يحسدني عليها ليس بحاسد يذم حسده، بل يمدح لأنه يرجو النبل والشرف والرئاسة والمجد إن كان لم يتمن زوال النعمة عني، بل أراد مثلها فحسب، وقال أيضًا:

فافخَر فَمَا من سَماءٍ لِلعُلى رُفِعَتْ إلَّا وأَفعَالُكَ الحُسنَى لهَا عُمُدُ
وَاعْذِرْ حَسُوْدَكَ فِيمَا قَدْ خُصِصْتَ بِهِ إِنَّ العُلَى حَسَنٌ فِي مِثْلِهَا الحَسَدُ[3]

فإن قلت: لماذا هذه الشرور الأربعة دون غيرها؟

الجواب: يذكر ابن القيم رحمه الله أن هذه الشرور الأربعة تمثِّل أخطر الشرور الغامضة وأعمها، فيقول: «الشَّرُّ الذي يُصيبُ العبدَ، لا يخلو من قسمين:

إما ذنوبٌ منه يعاقَب عليها، فيكون وقوعُ ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشرُّ هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظمُ الشَّرَّيْنِ وأدْوَمُهما وأشدُّهما اتصالًا بصاحبه.

وإما شرٌّ واقع به من غيره، وذلك الغير إمَّا مكلَّفٌ أو غير مُكَلَّف، والمُكَلَّف إمَّا نظيرُه وهو الإنسان، أو ليس نظيرَهُ وهو الجِنِّيُّ، وغيرُ المكلف مثل الهوَامِّ وذوات الحُمَى[4] وغيرها.

---

(١) الكشاف (٤/ ٨٢٢)، والحديث أخرجه البخاري، رقم (٧٣)، وغيره.

(٢) البيت لأبي تمام في ديوانه (ص: ١١٧) بهذا اللفظ، ويروى شطره في بعض المصادر بـ: وإني لمحسود وأعذِر حاسدي. ينظر: حاشية الكشاف (٤/ ٨٢٢).

(٣) ديوان أبي تمام الطائي (ص: ١٠٠).

(٤) الحُمَةُ: سَمُّ كُلِّ شَيْءٍ يَلْدَغُ أَو يَلْسَعُ، والجمع حُمَات وحُمًى. لسان العرب (١٤/ ٢٠١).

فتضمنَت هاتان السورتان الاستعاذةَ من هذه الشرور كلِّها، بأوجز لفظ وأجمعِهِ وأَدَلِّهِ على المراد وأعمَّه استعاذةً، بحيث لم يبقَ شرٌّ من الشُّرور إلا دخلَ تحتَ الشَّر المستعاذ منه فيهما»[(١)].

هذه السورة نعمة عظيمة، وبينة قويمة يعتصم بها الإنسان من شر كل الإنس والجان، ويأمن بها الخائف التَعِب من شر أوقات الخوف وأماكنه وأشخاصه مهما اختفى الواحد منهم أو خادع، وينتصر بها القَلِق المغدور من شر السحرة والآلام التي تصل إلى كل مسحور، ويلوذ بها المحسود من زوال النعمة التي أكرمه بها الله الملك الحميد المعبود، فكأنه يقول: «يا منْ أولاني نعمتَه وأسْداها إليَّ، أنا عائذٌ بك من شرِّ من يريدُ أن يستلبَها مني، ويُزيلها عني، فلا يعيذني منه سِواك، فهو مستجير بمن أنعم عليه من عدوِّ نعمته، والله تعالى يُجير ولا يجار عليه وهو حسْبُ من توَكَّلَ عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمِّنُ خوفَ الخائف، ويجيرُ المستجير، وهو نِعْمَ المولى ونعم النصير» (بدائع الفوائد: ٢/ ٧١٠).

فإن قلت: هل الحاسد المستعاذ من شره في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ يعم الحسدة من الجن والإنس؟ وما الفرق بين الحاسد والمُوَسْوِس؟

الجواب: قوله ﷻ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ يعم الحاسد من الجن والإنس، فإن الشيطان وحزبَه يحسدون المؤمنين على ما أتاهم الله من فضله، ولكن الوسواس أخص

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧١٠).

بشياطين الجن، والحسد أخص بشياطين الإنس، والوسواس يعمُّهما أيضًا، فكلا الشيطانين حاسد موسوس، فالاستعاذة من شر الحاسد يعمهما جميعًا(١).

وقد تسأل: هل يمكننا التأمل في سرِّ ختم القرآن المجيد بهاتين السورتين المباركتين؟

الجواب: يتجلى سرُّ ختم القرآن المجيد بهاتين السورتين المباركتين بما يأتي:

أولًا: ختم القرآن العظيم بهاتين السورتين من أقوى البراهين وأعظم الأدلة على أن القرآن المجيد منزل من الله العزيز الحميد، فـ«هاتانِ السورتان من أعظم أعلام النبوة وبراهين صِدْق رسالة محمد ﷺ ومضادَّةِ لما جاء به الشَّياطينُ من كلِّ وجه، وأن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم، وما يستطيعون فما فعلوه، ولا يليقُ بهم، ولا يتأتَّى منهم، ولا يقدرونَ عليه»(٢).

ثانيًا: «جاءت هذه السورة (الفلق) في أواخر القرآن، فكأنها جاءت في أعقاب القرآن لتذكِّر المسلمين بعظم نعمته عليهم وشدة حسدهم عليه، ليحذروا أعداءهم الذين يكيدون لهم في دينهم، من كل من الجنة والناس، على ما سيأتي في السورة بعدها»(٣).

بصيرة: لا تحتاج المسألة إلى كبير عناء لتدرك عند قراءة هاتين السورتين (المُعَوِّذتين) أن القرآن كلام رب الأرض والسماء، وأن هاتين السورتين من أعظم مظاهر إعجاز القرآن الذي جاء حجة على العالمين، ومبيِّنًا للخلق خاتمة الرسالات ليحميهم من ضلالات الإنس والجن أجمعين.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٥٩).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٧٣٤).

(٣) أضواء البيان، ط: دار الفكر (٩/ ١٦٥).

ثالثًا: كما افتتحت تلاوة القرآن الكريم بالاستعاذة ختمت بالاستعاذة لتشعرك بحاجتك لحفظ الله ورعايته في البدء والختام، وفي أول الأمر وعند التمام.

أعظم المعاني التي تظهرها المُعَوِّذتان

البصيرة الأولى

الاستعاذة من هذه الأخطار الخمسة المذكورة في الْمُعَوِّذَتَيْنِ تُظهر لنا صورة الإيمان في القرآن الكريم، وتُظهر لنا حقيقته أيضًا

البصيرة الثانية

تبصِّرنا المُعَوِّذتان بأن الحياة مليئة بالأخطار والشرور الخفية التي تتربص بها، وأن المؤامرة الشريرة موجودة يتواصى بها شياطين الإنس والجن، وأن الملجأ الأعظم لنا لدفع تلك الشرور أمران:

أحدهما

تفعيل العبودية الصادقة في محراب رب الفلق، فهو رب الناس، ملك الناس، إله الناس خوفًا ورجاء ومحبة.

الآخر

النظر إلى العالم ببصائر القرآن لا وفق رؤية المشوَّهين من بني الإنسان الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا.

هنا نسأل: ما أعظم المعاني التي أظهرتها لنا هاتان المُعَوِّذتان العظيمتان؟

الجواب: تتلخص أعظم المعاني للمُعَوِّذتين في البصيرتين الآتيتين:

البصيرة الأولى: الاستعاذة من هذه الأخطار الخمسة المذكورة في الْمُعَوِّذَتَيْنِ تُظهر لنا صورة الإيمان في القرآن الكريم، وتُظهر لنا حقيقته أيضًا.

فالإيمان يجمع بين محبة الله ﷻ والاعتقاد الجازم الحازم بقدرته الكاملة وعلمه الشامل وحكمه المحيط، وبين الأخذ بسُنَنَه في الكون، فكلُّ شيء يجري وفق قوانين الأسباب التي جعلها الله ﷻ مدبِّرة لهذا الكون، وبذلك تظهر لنا المُعَوِّذتان[1]:

أولًا: بطلان قول الجبرية: أنا كالآلة لا فعل لنا أصلًا، وإنما نحن كالحَجر لا يتحرَّك إلا بمحرِّك، لأنه لو كان هو المحرِّك لنا بغير اختيار لم يكن للأمر بالتعوذ فائدة.

ثانيًا: بطلان قول الغلاة الذين يزعمون أنا نصنع القَدَر؛ لأن الله ﷻ أمرنا بالاستعاذة به ليصنع لنا القَدَر، لا لنصنعه نحن.

ثالثًا: بطلان قول الفلاسفة: إنه إذا وجد السبب والمسبَّب حصل التأثير من غير احتياجٍ إلى ربطٍ إلهيٍّ كالنار والحطب؛ لأن الله ﷻ أوضح لنا خطر هذه الشرور، فقد جعل الله ﷻ لها قوة يمكنها من خلالها أن تؤثر، وفي الوقت نفسه أمرنا بالاستعاذة منها لكفِّ هذا التأثير مع ما أمرنا به من اتقائها بالأسباب المضادة لها كأخذ الحذر، وعدم الغفلة عن الأسلحة والأمتعة.

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤١٤)، ولكن كلامه لم يكن دقيقًا بسبب الانتماء المذهبي في العقائد.

البصيرة الثانية: تبصِّرنا السورتان بأن الحياة مليئة بالأخطار والشرور الخفية التي تتربص بها، وأن المؤامرة الشريرة موجودة يتواصى بها شياطين الإنس والجن، وأن الملجأ الأعظم لنا لدفع تلك الشرور أمران:

أحدهما: تفعيل العبودية الصادقة في محراب رب الفلق، فهو رب الناس، ملك الناس، إله الناس خوفًا ورجاء ومحبة.

والآخر: النظر إلى العالم ببصائر القرآن لا وفق رؤية المشوَّهين من بني الإنسان الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا.

تم بحمد الله

الفقير إلى ربِّه الغني جلَّ ذِكْرُهُ:

عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ القراءات والتفسير والدراسات القرآنية

كلية الشريعة/ جامعة قطر

فهرس الموضوعات

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد خازر المجالي ٦

مقدمة ٨

وَهَجُ الشفَقِ بأنوار سورة الفلقِ ١٢

النُّور الأول: فضائل سورة الفلق ١٤

الفضيلة الأولى: الحصن الأعظم من جميع المخاطر والشرور ١٤

الفضيلة الثانية: من أعظم السُّوَر مكانة ١٥

الفضيلة الثالثة: من أعظم السُّوَر محبَّة عند الله ﷻ ١٦

الفضيلة الرابعة: تكرار تلاوتهما في صلاة الفجر مع أن الأصل فيها طول التلاوة ١٦

الفضيلة الخامسة: الحماية للإنسان في أثناء نومه ١٧

الفضيلة السادسة: علاجٌ للأوجاع والأسقام ١٨

الفضيلة السابعة: المُعَوِّذتان وقاية من الحوادث المخيفة ١٩

الفضيلة الثامنة: المُعَوِّذتان وسيلة لإجابة السُّؤال، ووقاية خاصَّة من جميع ما يُخاف منه ١٩

الفضيلة التاسعة: ارتباطهما بصلاة الوتر اليوميَّة ٢٢

الفضيلة العاشرة: المُعَوِّذتان العلاج الأقوى للسِّحر ٢٣

النُّور الثَّاني: عمود سورة الفلق (موضوعها الكلي) ٢٤

النور الثالث: الأسس الثمانية التي تؤدي إلى معرفة عمود سورَة الفلق (موضوعها الكلي) ٢٦

الأساس الأوَّل: النُّزول التَّاريخيُّ ٢٧

أحاديث سحر النبي ﷺ ٢٨

سحر النبي ﷺ: بين صحة الرواية والتأويلات الخاطئة ٣٢

إنكار الأحاديث الواردة في سحر النبي ﷺ ٣٢

مناقشة أدلة المنكرين لسحر النبي ﷺ ٣٥
الأساس الثَّاني ٤٤
التَّرتيب المصحفيُّ (المناسبة والاتصال) ٤٤
العلاقة الأولى: الخلاص، والحماية والسلام ٤٤
العلاقة الثانية: التعظيم والالتجاء والفرار... ٤٥
العلاقة الثالثة: الفلق والناس هدية الختام بعد اكتمال معالم الدين في القرآن ٤٦
العلاقة الرابعة: لمَّا شرح الله ﷻ أمر الإلهية في سورة الإخلاص شرح في السورتين بعدها مراتب مخلوقاته التي قد ينبثق عنها كلُّ شرٍّ موجود في الكون ليزداد المرء لربِّه ﷻ إخلاصًا............ ٤٧
العلاقة الخامسة: الشرور الأربعة في سورة الفلق ترتبط بأصل العدوِّ الذي يثير الشَّرَّ في العالم .. ٤٧
العلاقة السادسة: الإخلاص دعوة إلى الله، والمعوذتان حماية للداعية أثناء دعوته ٤٨
الأساس الثَّالث: اسم السورة ٥٠
الأساس الرابع: أهمُّ موضوعات السُّورَة ٥٣
الأساس الخامس: مدد السَّابقين من المفسِّرين في تحديد عمود السورة (الموضوع الكلِّي).... ٥٣
الأساس السادس: الخريطة الكلية للسُّورَة ٥٤
الأساس السابع: الكلمات التي انفردت بها سورة (الفلق) ولم تتكرَّر في بقية السُّوَر ٥٦
الأساس الثامن: الكلمات المتكرِّرة بصورة ملحوظة ٥٨
التفسير التفصيلي وبصائر سورة الفلق.. ٥٩
أهداف سورتي الْمُعَوِّذَتَيْنِ ٦٠
المحور الأول: الأمر بطلب المعاذ الأعظم حماية من الشرور الظاهرة والغامضة ﴿قُلْ①﴾ ٦٢
المحور الثاني: المستعيذ، وهو المستجير بالله المعتصم به من أنواع الشرور ٦٧
المحور الثالث: صيغة الاستعاذة.. ٦٨

المحور الرابع: المستعاذ به: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] ٧٤
المحور الخامس: المستعاذ منه، وهي أربعة أخطار: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ٢-٥] ٨٨
الخطر الأول: شرُّ الخلق ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ٢]. ٨٨
معهود القرآن نسبة الشر إلى المخلوق لا إلى الخالق ٩٧
بين الاستعاذة والقضاء والقدر ١٠٩
الخطر الثاني: شر غاسق إذا وقب ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق: ٣]. ١١٢
سورة الفلق تصور مشهد ظلام يبعث على الرهبة ويقتضي التعوذ ١١٩
مشهد تراجع فلول الظلام أمام فيالق الفلق ١٢٢
الخطر الثالث: شر السِّحر الذي تعمله النفاثات في العقد ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾. .. ١٢٤
الخطر الرابع: شر الحاسد إذا حسد ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ٥]. ١٣١
الحسد آفة متجذرة في النفس البشرية ١٣٣
حِكَم تقييد الاستعاذة من الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ ١٣٥
الحسد دليل وجود النعم الكثيرة والفضائل الأثيرة ١٣٨
سبل الوقاية من شر الحسود: ١٥٠
الإحكام المدهش في الترتيب المحكم للشرور الأربعة ١٥٨
فهرس الموضوعات ١٦٦

للتعرف على مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية

امسح الرمز

الأستاذ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي

- رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.
- رئيس مشيخة الإقراء اليمنية
- أستاذ دكتور (برفسور) في قسم القرآن والسنة/ كلية الشريعة/ جامعة قطر حاليًا، وجامعتي ذمار وحضرموت سابقًا.
- أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه.
- له أكثر من ٣٣ كتابًا ومؤلفًا في التفسير وعلوم القرآن والدراسات الإسلامية.
- له أكثر من ٢٥ بحثًا علميًا منشورًا في عدة مجلات علمية محكمة.
- أسهم في تأسيس عدد من الكليات والجامعات الشرعية في اليمن.
- شارك في لجان التحكيم الدولية أكثر من ٣٠ مسابقة دولية للقرآن الكريم في العالم.
- شارك في العديد من المؤتمرات العلمية في أنحاء متفرقة من العالم.
- قدَّم عددًا من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في اليمن وقطر والبحرين والكويت وبريطانيا وفرنسا وتركيا وإندونيسيا وكينيا وغيرها من الدول.

بصائر المعرفة القرآنية — تسوير السور القرآنية — مفصل تفسير — سورة الفلق

في عالم تتزاحم فيه المخاوفُ وتتعدَّد فيه التحديات، يقدِّم هذا الكتابُ تحليلًا عميقًا لسورة الفلق، ذلك الحصن الرباني المنيع! يكشف لنا كيف تقدِّم هذه السُّورةُ القصيرةُ حمايةً شاملةً من كلِّ ما يهدِّد الإنسانَ في حياته، مِن نَفْسِه الأمَّارة بالسوء، إلى حسد الحاسدين، ومن مكائد الشياطين إلى شرور الظالمين.

إنَّها سورة تعطي العالَمَ نداءَ المحبَّة الإلهيَّة ليَعُوذوا بكَنَفِ الله، ويلجؤوا إلى أمنع حصنٍ وجاه، ويستظلُّوا بأعظم العزِّ في حِماه، ويلوذوا بحمايته وحفظه من كلِّ ألمٍ أو آه، ويتفيؤوا ظلالَ نُورِه وهداه.

يأخذنا الكتاب في رحلة روحانية عميقة، يستكشف فيها كيف فتح الله لعباده بهذه السُّورة بابًا من أبواب رحمته، مقدِّمًا لهم ملاذًا آمنًا يُحَوِّلُ ضَعْفَهم إلى قوَّة، وخَوْفَهم إلى طمأنينة.

إنه كتابٌ لا غنى عنه لكلِّ من يبحث عن السَّكينة في زمن القلق، والأمان في عالم المخاوف.

اكتشف معنا كيف تمثِّل هذه السُّورةُ العظيمةُ درعًا واقيًا وحصنًا منيعًا لكلِّ مؤمن يلوذ بحمى الرحمن، وكيف تمنحنا الطمأنينة في مواجهة تحديات الحياة.

قرآن يتلى لإنسانية ترقى